قاع الدنيا

رواية من الخيال العلمي

أحمد إفزارن

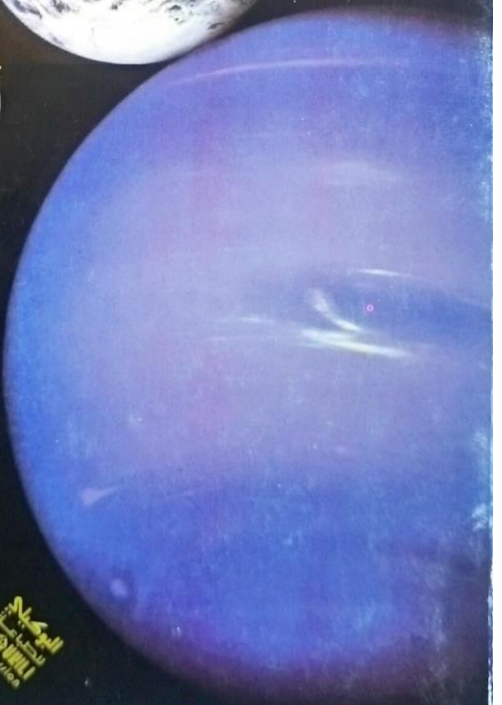

أحمد إفزارن

قاع الدنيا

رواية من الخيال العلمي

طبع بدعم من وزارة الثقافة في المملكة المغربية

الطبعة الأولى
2007

رقم الإيداع القانوني
2007 / 2271

الرقم الدولي المعياري للكتب
ISBN 9981 - 45 - 102 - 9

البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع
43، زنقة محمد عبده - القنيطرة / المملكة المغربية
هاتف : 00 99 37 037 / 37 99 37 037 - فاكس : 35 99 37 037
بريد إلكتروني : boukiliimpression@menara.ma
E-mail : boukiliimpression@menara.ma

□ رسالةٌ إلى نفْسي..

كتبتُها قبل أسابيع..

أودعتُها صندوق البريد، لكنها لم تصل..

ولا غرابة، فالمراسلةُ بهذه الطريقة ليست دائمًا مضمُونة..

هي أصلاً بطيئةٌ جدا، بيْد أنها مُمتعة.. تجعلُك تُطلُّ على أزمنةٍ قديمة، على عُهودٍ كان البريدُ فيها كالسُّلحفاة.. آنذاك كانت الرسائلُ تُشحَن في الحافلات والقطارات والطائرات، وتنتهي إلى "المُوزِّع اليدوي"..

ـ ووُصولُها إلى عُنوانها رهينٌ بظروف مُؤسَسةِ البريد، ومزاجِ

إلى
ابن بطوطة
أهدي
هذه الرحلة.

- مُوزّع الرسائل" ..

إلا أن رسالتي أخذت اتّجاهًا آخر ..

ثمّ اختطافُها في الطريق ..

المراقبُون تلقّفُوها .. اشتمُّوا فيها ما اعتبَرُوه غيرَ طبيعي ..

ومنهم تلقّيتُ أمرًا بالحُضور إلى "مَخْفر التّحقيق" ..

تأكد المحقّقُ من هُويتي ..

ومدّ إليّ ظرفًا : «أهذه رسالتُك يا "لُقْمَان" ؟» ..

أجبتُ : «نعم» ..

ـ بعثتَ بها إلى نفسك ؟

قلتُ : «أجل .. لإرضاء غريزة التّخاطُب .. ولكي أُساهم في تنشيط خدمات "صندوق البريد" .. وبوضوح : استَهوَتْني الكتابة .. فكتبتُ إلى نفسي ، عبر البريد البطيء» ..

ـ حسنًا .. وماذا كتبتَ ؟

أجبتُ : «ألم تقرأوا الرّسالة ؟ لا شكّ قرأتُم أنّني كتبتُ سيناريو .. اختلقتُ قصةً تتصوّرُ أنني مُقبلٌ على تحويل اتّجاهِ مركبة الفضاء التي أنا قائدُها» ..

ـ أنت قائدُ المركبة ؟

قلتُ : «نعم .. أسوقُها عادةً إلى المرّيخ ، في رحلاتٍ مكوكية .. أنقلُ من الأرض إلى هناك مُعلّبات وأصنافًا من الموادّ الغذائية .. وأجلبُ المعادن» ..

ـ ولكن هذه المرة تُعشّشُ في دماغك فرصة.. أليس كذلك؟

أجبتُ: «بلى.. هذه المرة لا أعتزمُ التوجُّه بالمركبة إلى المرّيخ.. سأشُقُّ الفضاءَ باتجاه كوكب أبعَد.. "نبتون"! علمتُ أن هناك أزمةً غذائية.. سأبيعُ سُكانه بضاعتي، شرط أن يسمحُوا لي بالإقامة والتجنُّس.. أريدُ أن أبقى هناك.. أن أتزوّج فتاةً "نبتونية"، وأُنجب أطفالاً "نبتونين"!»..

ثم ضحكتُ: «هذا أيُّها المحقّقُ مُجرّدُ سيناريو.. قصّة اختلقتُها لنفْسي، ولم أُسوّقْها لغيري.. بعثتُها إلى نفسي.. نفْسي فقط!»..

أخذَ الرّجُلُ يحدقُ في وجهي..

وبعد هُنيهة أجاب: «للحديث بقيّةٌ يا "لُقْمَان".. التحقيقُ ما زال في البداية»..

في البداية؟ يا إلهي ماذا فعلتُ؟ أليس من حقّي أن أُكاتب نفْسي؟ أليس من حقّي أن أُخاطبها؟ أليس من حقّي أن أُفكّر؟ فهل التفكيرُ جريمة؟

ورُحتُ أسبحُ في خيالٍ بعيد..

آلافُ المشاهد تُلاحقُني.. تُهدّدُني.

كُلُّها قاتمة..

فماذا لو وَصلَ الخبرُ إلى مُديري في "مُؤسسة الرّحلات المرّيخية"؟ سيتصوّرُ حتماً أنني مُخطّطٌ لقرصنةٍ حقيقية، وأنني أُعدُّ لفرارٍ فعلي بالمركبة.. وسيستخلصُ أن "لُقْمَان" غيرُ أهلٍ لا للثقة، ولا لقيادةٍ

فضائية..

حاولتُ أن أطرد الهواجس، ولكن عبثًا..

وتراءتْ لي المحكمة.. وتُهمةُ الخيانة..

تصوّرتُ نفسي مُرتديًا بذلةَ محبُوسي الفضاء، ويدفعُني رجُلٌ آلي للانضباط في الصَفّ..

سجنُ الفضاء يتزوّدُ بالمؤونة، ويحملُ نُزلاءَه، ثم يدُورُ حول الشمس، ويُواصلُ دورانَهُ إلى حين انتهاء مُدّة العقوبة..

ثم يعودُ السّجينُ للأرض كائنًا آخر..

تائبًا..

وهواجسي لا تنتهي..

وأستحضرُ ألاّ وجُود للشّرُوق بعيدًا عن الأرض، خارج الغلاف الجوّي.. ولا حتى للغَسَق.. السّماءُ في السماء بلا زُرقة.. هي بالرّؤية الأرضية سوداء..

وهأنذا في دوّامة..

أتنقّلُ من فكرةٍ لأخرى..

خيالي مُولّد..

كلُّ فكرةٍ لا تأتي من عدم.. هي لقاحُ فكرةٍ سابقة مع فكرةٍ لاحقة..

هكذا تتفرّخُ "أجيالُ الأفكار"..

ويُوحِي إليَّ الخيالُ بنُكتة..

إنّ من الهلوسة ما يُضحك: فماذا لو كتبتْ رواية بطلتُها دجاجة؟ دجاجة تختطفُ إنسانا.. لا شكّ أنها قصّةٌ مُثيرة.. فستطالبُ الدّجاجةُ بفدية.. وتُملي شروطها على بني آدم!

وأضحكُ للدّجاجة..

ثم يقودُني الخيالُ إلى نُكتة أخرى: ماذا لو تحدّيتُ مُديري.. مُدير "مُؤسّسة الرّحلات المريخية"؟ ماذا لو عطستُ على صلعته؟ ستكونُ هذه أضحوكةُ العام.. حتى إذا فُصلتُ من العمل، بقيتْ هذه مأثُرة.. الكلُّ سيتذكّرُ "لُقمان".. سيتذكّرُ أنه هو من رفع التّحدّي.. هو من عطس على صلعة المدير!

وأضحك..

وأكتشفُ أنني ما زلتُ أهذي، وأنني لن أفعل.. لن أجرؤ على مُواجهة مُديري.. فشتّانَ ما بين الخيال والواقع..

وواقعي ورطة..

أنا في ورطة..

وعليٌّ بالقَسَم..

سأُقسمُ أنْ بعد اليوم لن ألعب بالكلمات.. لن أكتُب رسالةً قد تُقرأُ هزْلياتُها بالمقلوب!

وشبحُ الرّقابة يتعقّبُني..

وحُجّتي واهية.. فالمتجسّسُون على خيالات الناس يعرفُون كيف ينتزعُون منهم الاعترافات.. إنهم يُتقنُون هذا "الفنّ".. وماذا يمنعُهم

أن يضعُوا على رأسي، إذا شاؤوا، "طاقية الاعتراف"؟ بهذه حتمًا سينتزعُون منّي ما يُريدُون من الاعترافات..

وبها سيُفتشُون في خلايا دماغي عن الماضي.. عن التسجيلات الخاصّة بالرّسالة.. فيستخرجُونها من أعماقي.. ويُملونها على الحاسوب، كي يُحوّلها إلى لُغة.. فيا للزمن الأعوج! كلُّ ما بالعقل مكشُوف.. ولا مجال للتحايُل.. لا قُدرة لي على التستُّر.. أنا في أيديهم.. ودماغي لهم مُستسلم.. لم يعُد يكتُمُ الأسرار..

وأسمعُ دقّاتٍ على الباب..

لا شك أنهم سيقبضُون عليّ.. سيتّهمُونني بالقرصنة.. باستغلال النُّفوذ.. وخيانة الأمانة.. التهمةُ خطيرة.. الزّنزانةُ الفضائية لا ترحم..

فتحتُ الباب مُضطربًا..

لم يصلْ من كنتُ أتوقّع..

فهذه فتاة..

شابّةٌ تبتسم..

تُسلّمُني ظرفًا.. هي ذي رسالتي، تلك التي بعثتُها إلى نفسي..

وتُسلّمُني ظرفًا آخر.. إنها كلمةٌ من "مخفر المراقبة": «أنت بريءٌ يا "لُقْمَان"!»..

تنفّستُ الصُّعداء..

أنا بريءٌ..

إذن غيرُ مُتابَعٍ..

غيرُ مُهدَّدٍ بزنزانة الفضاء..

هذا يعني أنّهم لم يخلطُوا بين الخيال والواقع.. وأنّهم يعترفُون بحقّي في التّخيُّل..

ودعوتُ الشابّةَ للإفطار..

جلسْنا وجهًا لوجه.. إنها مُشرقةُ المحيّا.. بعيْنيْها تبتسم.. وتبتسمُ بكل ما فيها.. وكأنَّ الدنيا كُلّها بشائر..

سألتُها عن اسمها وعملها.. قالت: «أنا "سُونا".. مُوزّعةُ الرسائل»..

ثم استَطْردَتْ: «أُوزّعُ صنفًا واحدًا من الرّسائل.. ذاتَ الأخبار السّارة»..

ثم ودّعتْني "سُونا".. وانصرفتْ.. فيما رنَّ الهاتف..

مُديري على الخط: «يا "لُقْمَان".. وصلتْنا تخيُّلاتُك.. وهي ليست سلبية.. هي حماسٌ مغروسٌ في لاشعُورك.. وهذا الحماسُ الداخلي إيجابيٌّ لأسطُولنا الفضائي.. فأبْشِرْ يا "لُقْمَان".. أنتَ مُطالبٌ بتنفيذها.. فاستعدَّ لقيادة المركبة لا إلى المريخ كالعادة، بل هذه المرة إلى "نبتُون" !»..

ـ أرحلُ إلى "نبتُون"؟

كدتُ أطيرُ من الفرح!

وبدأتُ أتخيّلُ المطار، ومنصّةَ الإقلاع.. وأحلُم بالموعد المحدّد

للرّحلة..

ودعاني المديرُ إلى مكتبه، فأكّدَ لي أنّنا سنعتمدُ نفس الطريقة المعمول بها لدينا في التّواصُل الكتابي والصوتي والمرئي مع كواكب المجموعة الشّمسية، وقال: «ستُبثُّ إلى مَرْكبَتك، وبانتظام، كلُّ الأجوبة التي يُحتملُ أن تطرحَ أسئلتَها علينا من هناك، فما عليك إلا أن تسألَ ما تُريد، لتتلقّى الجواب المناسب»!..

وصافحني المديرُ بابتسامة عريضة: «رحلتُك ستبدأ بعد يومين.. فكُنْ كعادتك في مُستوى المهمّة!»..

وخرجتُ من مكتبه في مُنتهى النّشوة.. فأنْ أذهب إلى أواخر الحدُود الشّمسية، هذا ما سيفتحُ أمامي آفاقًا استكشافيةً واسعة.. هذه آفاقٌ أخرى لم تأتِ من عدم، بل من رصيدٍ فضائي.. ومُهمتي هذه المرة تتجاوزُ "المرّيخ"، فهذا الكوكبُ الأحمر ما هو إلاّ واحة في الطريق الطويلة إلى "نبتُون".. وبصراحة، أنا مللتُ هذا "المرّيخ".. فهو مُستعمرةٌ أرضية كلُّ ما فيها نسخةٌ من حياة الأرض..

نحنُ الأرضيون استعماريون! استعمرْنا كوكب "المرّيخ"، فأفسدناهُ بعد أن أفسدْنا كوكبَ الأرض، وأيضًا تابعَهُ "القَمَر".. ولا أتمنّى أن نفعلَ في "نبتُون" ما فعلْنا في "المرّيخ"!..

وحلّ الموعد..

وقلبي يُنبّهُني: «رحلتُك هذه قد تكونُ بدايةَ مطامع توسُّعية من الأرض في "نبتُون"!»..

ـ اللهُمَّ اجعل العاقبةَ سليمة!

ردَدتُها في أعماقي، والتفتُّ إلى المركبة الجاثمة على أرضية المطار.. ستُقلعُ في شكل طائرة، ثم تتحوّلُ في الأجواء إلى مركبة فضائية!

ما زال الرّوبوتيون يشحنُون الصناديق في مُستودَع المركبة، بينما المسافرون يدخلون من الباب الأمامية والباب الوُسطى، لأخذ مقاعدهم..

المسافرون سُيّاحٌ من مختلف الأعمار، أطفالاً ونساءً ورجالاً.. ففي هذا العصر، تعرفُ كواكبُ المجموعة الشمسية زيارات مُتبادلة هامّة، لتنشيط ثقافة السياحة..

وتأكّدتُ من سلامة المعدّات التّواصُلية التي ألحَّ عليها المدير، فهي نفسُها اعتَمدتْها "مُؤسسةُ الرّحلات المرّيخية" في أواخر رحلاتي بهذه المركبة نفْسِها..

وحضر المدير..

صلْعتُه لم تتغيّر.. دائمًا لامعة.. قدّم لي أعضاءَ الطاقم.. ويا للمفاجأة! من بينهم الفتاة.. ذاتُ الأخبار السارّة.. هي الأخرى معنا راحلة..

استبشرتُ خيراً..

وعند لحظة الصفر، أقلعَت المركبة..

وصوتٌ ناعمٌ يُردّد: «القائد "لُقْمَان" يتمنّى لكم رحلة ممتعة!»..

□ رحلةٌ مُمتعةٌ مع "سُونا"..

دعوتُها من مقعدها بين أعضاء الطاقم.. وجلستْ إلى جانبي في مقصُورة القيادة..

وتحدّثنا في كلّ شيء..

وقلتُ إنّني أرى في عملها تجسيداً لحضارة يجبُ أن يُحافظ عليها..

وعلّقَت "سُونا": «إن "مُوزّعَ الرّسائل" يجعلُ أبناءَ الحاضر يعيشُون طريقةَ الأجداد في التّواصُل.. وبهذا يكونُ الموزّعُ عيّنةً بشريةً من حضارة الأجداد.. إنهُ متحفٌ بشري مُتحرّك.. وبتعبير آخر: عُنصرٌ أثريٌّ حيّ، ولكن...»..

ـ لكن، ماذا؟

تأوّهَت "سُونا" من الأعماق..

وسكتَتْ..

وبعد طُول صمت قالت: «مهنتي مُهدّدةٌ بالانقراض.. إنّها مُكلّفةٌ ماليًا.. فالناسُ لم يعُودُوا يُقْبلُون إقبالاً كافيًا على التّواصُل بالرّسائل اليدوية.. وهذا يُعطي لصانعي القرار السّياسي مُبرّرًا لوقف توزيع الرسائل، وبالتالي قتل المراسلات اليَدوية وتحويلها إلى مُجرّد ذكرى.. مُومياءَ من التاريخ»..

"سُونا" غاضبةٌ من مآل مهنة توزيع الرسائل..

وطَمْأنْتُها: «علينا أن نتقبّل بعض السّلُوكات، ولو على مضض..

فلكُلّ شيءٍ، وكلّ مهنةٍ في الحياةِ بدايةٌ ونهاية...»..

قاطعتْني بحدّة: «علينا أن نحمي ما نستطيع، لا أن نجد مُبرّراتٍ لمن يقتُلون حلقاتٍ نابضةً في التّسلسُلِ التاريخي للحياة.. فهل تعرفُ السّببَ الحقيقي لإصرار بعض صانعي القرار على اغتيال المراسلات التّقليدية؟ السّببُ هو أن الكتابة باليد تستطيعُ أن تُمرّر خطاباتٍ تعجزُ أدقُّ الآليات عن قراءتها.. فرغم أن عالم اليوم فيه آلاتٌ تقرأُ الكُتُبَ والجرائد والرسائلَ حتى وهي ملفُوفةٌ في أظرفة، فإن هذه القراءات سطحيةٌ لا ترقَى إلى مُستوى قراءات العيْن البشرية.. إن العقلية السياسية في عالمنا لم تتطوّر.. السياسةُ ما زالت على حالها من التّخلُّف الذي كانت عليه في زمن الأجداد.. وهذه السياسةُ هي المسؤولةُ عن تدمير المتاحف، وإحراق المكتبات، وقطع الصّلة بين الماضي والحاضر.. ولذلك، أنا راحلةٌ إلى "نبتُون" ضمن طاقم المركبة.. سأطلبُ اللجُوءَ السياسي.. فعسى أن تكون السياسةُ في "نبتُون" أكثر إنسانية من سياسة الأرض...»..

الرّحلةُ إلى "نبتُون" طويلة..

ستستغرقُ عامًا كاملاً..

وأثناء الرّحلة، قال لي "دماغي الأيسر": «أنتَ أيضًا، ستطلبُ اللجُوءَ السياسي! عليكَ به في كوكب نبتُون.. لا تعُدْ لأرضٍ تتغلّبُ فيها المصالحُ الخاصّةُ على المصالحِ العامّة!»..

هذا رأيُ "دماغي الأيسر"..

وهو عكس "دماغي الأيمن" الذي يكبحُ جماحي عندما يُلاحظُ مني أيُّ اندفاع..

نحنُ في هذا الزمن أمام تبادُل الأدوار: فالدماغُ الأيمنُ لم يعُد مسؤولاً عن الخيال والموسيقى والصُّور الأكثر استخدامًا لدى الفنانين والمبدعين، كما لم يعُد الأيسرُ مسؤولاً عن اللغة والمنطق والتّحليل..

انقلبت المعادلة..

وانقلبت الأدوار..

وأصبح الأيسرُ هو مُنتجُ الخيال..

يرى أنّ الأفكار مثل كلّ الكائنات الحيّة، تُنجَبُ من صُلب الماضي، وبإيعازٍ من المستقبل، وتَتجدّدُ في تناسُلٍ فكري لا ينتهي..

إنّني أتجاوبُ أكثر مع "دماغي الأيسر"..

هذا مُشاغبٌ يصنعُ تصوّراتي، ويقُودُني في سلُوكاتي..

ويصنعُ حماسي في مُواجهة الحياة..

يتعاملُ معي مُعاملةَ الصّديق.. ويُمازحُني فأضحكُ أحيانًا حتى أسقُط على قفاي!

سألتُه عندما انقطع اتّصالي بالأرض: «بماذا تنصحُني أيُّها الأيْسَر؟»..

أجاب: «قبل اللجوء السياسي، الْتجئ إلى من هي بجانبك!»..

التفتُّ إلى يميني.. كانت "سُونا" تبتسم..

تبتسمُ الرّفيقةُ وتسألُني: «ماذا قال لك؟»..

قلتُ: «يُريدُني أن ألتجئ إليك!»..

تضرّجتْ وجنتاها بالتورُّد، وانحنتْ برأسها قليلاً وهي تتجنّبُ أن ترُدّ، فسألَتْ: «وماذا عن الجمارك "النبتُونية"؟»..

قلتُ: «لا شكّ أنها التَقطتْ حواراتِنا مع بعضنا ومع نفْسِنا.. وما دُمنا لا نحملُ في أفكارنا معلُوماتٍ محظورة، فإنّ "دولة نبتُون" لن تعترض على منْحنا "حقّ اللجوء"»..

وقاطعَتْني: «ولكنّ "الأرض" لن تقف مكتُوفة الأيدي.. ستُلاحقُنا.. ستُطالبُ بتسليمنا»..

طمْأنتُ الرّفيقة: «ومع ذلك يا "سُونا"، لن تُقْدِم دولةُ "نبتُون" على مثل هذه الفعلة.. لن ترضخ لأيّة ضغُوطات أرضية.. فهي بحاجة ماسّة إلى الأدمغة الحالمة.. الخيالُ في "نبتُون" عُملةٌ ثمينة.. هو روحُ الحضارة.. أكيداً سوفَ تُرحّبُ بنا أيّما ترحيب.. فنحنُ سنُنتجُ أفكاراً ومشاريع، وبالتالي نُساهمُ بفعاليةٍ في التطوُّر»..

وسألتْني الرفيقة: «أليست هناك اتّفاقيات بين "الأرض" و"دولة نبتُون" للتّسليم المتبادل للأدمغة المتمرّدة المهاجرة؟»..

قلتُ: «لا.. فدولةُ "نبتُون" تُقدّرُ المفكّرين، وتعتبرُهم منارةً كونية، وتعتزّ بانضمامِ أيّ خيالٍ جديد إلى ترسانتها من ذوي التّصوُّرات المستقبلية.. هي عكس الأرض لا وُجود فيها لمُعتقلات الفكر.. المفكّرُون في "نبتُون" يُعاملُون باحترام وتقدير.. وتُوضعُ رهن إشارهم أدواتُ التوليد الفكري»..

حتى الآن، كلُّ شيء يسيرُ على ما يُرام..

ونحنُ في المركبة نتحدثُ بحُرّية تامّة.. ونُمارسُ الأحلامَ الجميلة..

وننتقدُ أيًّا كان، لأنّ الأرض، حتى ونحنُ غيرُ مُرتاحين لنهْجِها السياسي، هي في قلْبنا فوق الأشخاص والأحزاب.. نحنُ لا نخدُم الأشخاص، بل نخدمُ وطَنَنا "الأرض"..

ننتقدُ الوطن، ولكن من أجله نَموت!

□ أتحدثُ إلى الأرض، والأرضُ تتحدثُ إليّ..

طريقةُ التواصُل بيننا ناجحة.. ولا خيار لنا إلا هي.. فنحنُ بصدد الابتعاد عن كوكبنا بمسافات كونية لا تُحسبُ إلا بسُرعة الضوء..

سألتْني "سُونا" عن هذه الطريقة، فقلتُ: «إذا بَعثْنا رسالةً من "نبتُون" إلى "الأرض"، فإنها لن تصلَ على متن الضّوء سوى بعدَ ساعات.. وهذا يعني استحالةَ الاتصال المباشر مع الأرض، عندما تكونُ المركبة في "نبتُون".. ومن هُنا، كان لا بُدّ من ابتكار طريقة أخرى للتواصُل...»..

قاطعتْني المركبة: «جهازُ الأشعّة يُريدُ أن يتكلم!»..

ضغطتُ على الزّرّ الأبيض: «أهلاً بكَ!»..

هذا جهازُ الأشعّة "تحت الحمراء".. عليه نعتمدُ اعتماداً مُطلقاً في عمليات استكشاف مجاهل الكون..

قال مازحًا: «من أجلكم، تمكّنتُ اللحظةَ من اكتشاف عُنصر

جديد.. هذه معلُومةٌ للإخبار فقط.. فإذا أردتَ توضيحات عن هذا العُنصُر، فأنا جاهز»..

ـ شُكرًا لك يا جهازَ الأشعّة!

وأردْتُ قطع الاتصال، لكنه استَدْرَك: «أنا أملُكُم في أن تكتشفُوا مجاهل الكون، فأنتم الآن، ورغم كل تطوُّركم العلمي، ليست لكم إلا معرفة نسبية، وفقط بحوالي خمسة إلى عشرة بالمائة من حقائق الكون، والباقي تجهلونه جهلا مُطلقًا.. وهذا ينطبقُ أيضا على مؤهلاتكم الفكرية، حيث أنكم لا تستغلون منها إلا نسبة ضئيلة جدًا، والباقي تجهلونه أيضًا تمامَ الجهل.. وإذن، فأنتم محدُودُو التفكير والتنظير والرُّؤية...»..

لم أُمهلْهُ يواصلُ الكلام، فقد قطعتُ معهُ الاتّصال، وفي نفسي أقول: «يا لهُ من ثرثار!»..

هذا الجهاز يعرفُ كثيرا في مجال تخصُّصه، ولكن إذا تركتَهُ على هواه، لا يتوقّفُ عن الكلام..

ثرثارٌ، ولكنهُ عبقري!

وعادت "سُونا" تسألُ عن طريقة التواصُل بين الأرض والمركبة..

قلتُ: «الأرضُ تبثُّ إلى عُلبة التّلقي داخل المركبة كل الأجوبة التي يمكنُ أن ترُدُّ بها على أي سؤال من المحتمل أن أطرحهُ عليها طوالَ الرحلة»..

ـ ثم ماذا؟

قلتُ: «في الأرض فريقٌ متكاملٌ من التقنيين والخُبراء في كل المجالات، يتتبّعُ رحلتَنا بالليل والنهار، ويقوم بتخليق الأسئلة المحتمل طرحُها، وإعداد الأجوبة المناسبة عليها، ثم يبثُّ إلى المركبة هذه الأجوبة الجاهزة»..

ما زالت الرحلةُ طويلة..

وفي هذه اللحظة رنّ الجرَس..

إنها الأرضُ تطلبُني: «بلّغْ تحيات الأرض إلى جهاز الأشعّة "تحت الحمراء".. لقد اكتشف عُنصُراً جديداً من عناصر الحياة المنتشرة في الفضاء.. هذا العُنصُر لم يكُن حتى الآن معروفًا.. وبفضله، وفي رحلتكم، تمّ هذا الاكتشافُ المهمّ»!..

قمتُ من مقعدي، وتوجّهتُ صوب الجهاز.. مددتُ إليه يدي مُصافحًا على الطريقة البشرية: «أُحيّيكَ باسم كوكب الأرض!»..

سألَني إن كنتُ أريدُ أن أعرف التفاصيل، فأجبتُ: «أمامَنا مُتّسعٌ من الوقت.. وقد يأتي وقتُ السؤال.. مرة أخرى أحيّيك!»..

وعُدتُ إلى مقعدي..

و"سُونا" تسأل: «كلُّ الأجوبة الأرضية المرشّحَة للاستعمال موجودةٌ هُنا في المركبة؟!»..

ـ نعم.. عندنا هُنا صندوقُ "الأجوبة الجاهزة".. وهذا الصندوقُ يتغذّى ليلاً ونهاراً، بأجوبة أرضية جديدة.. فإذا التمستُ إجابة عن سؤال تفرضُه الظروفُ الآنية للرّحلة، فإنني أتّصلُ بالصندوق، عبر

بذلتي أو مقصورة القيادة التي نحنُ فيها.. وطبعًا، أثناء المحادثة، لا أخاطبُ الصندوق بل الأرضَ في "شخص" الصندوق.. ومن خلال أسئلتي وأجوبة الأرض، يبحثُ المختصون الأرضيون عما إذا كان الأمر يتطلبُ إضافات إلى الأجوبة، أو تصوُّرَ أسئلة أخرى تحتاجُ إلى ردود.. هكذا نشتغلُ معًا بين المركبة والأرض، لتأمين هذه الرحلة وإنجاح مُهمّتها "النبتُونية"..

وسألتْ "سُونا": وهل من يُجيبُون على تساؤلاتك هم فقط أعضاءُ فريق المداومة الأرضية؟»..

ـ لا.. فالأجوبةُ السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكل ما يرتبطُ بالعلاقات الاستراتيجية مع "نبتُون"، تأتي من الشخصيات المسؤولة في هرَم الدولة.. إن عمل الفريق لا يقتصر على المداومة الداخلية، بل فيه عناصر تتوجّهُ إلى الإدارات والمؤسسات المعنية بأيّ سؤال مُحتمل.. فهذه العناصر تشتغلُ على الأرض وكأنها ليست في الأرض، بل في مركبتنا.. فهي تتقمّصُ شخصيتَنا، وتتصوّر احتياجاتنا.. وهذا لا يعني أن كل الأجوبة مسجّلَةٌ لنا من قبل، أي سابقة عن أسئلتنا، فأحيانًا تتدخلُ الأرضُ قبل أن نسألها.. وبين الحين والآخر تصلُنا تدخُّلاتٌ من مسؤولين أرضيين في شكل رسائل صوتية فيها أوامر أو تعليقات على أحداث.. وعلى العموم تُشكّلُ توجيهًا في تعامُلنا مع الأوضاع المستجدّة!»..

□ عامٌ مضى على انطلاق الرحلة..

أخيرًا وصلنا إلى مدارات "نبتُون"..

أخذتُ الميكروفون للتحدُّث إلى الرّكّاب: «حضرات السيدات والسادة، نقتربُ من مرحلة الدخول إلى الأجواء "النبتُونية"..نحن على مشارف كوكبٍ في فصله الرّبيعي.. وفصلُ الرّبيع فيه ليس ثلاثةَ أشهُر، كما على الأرض، بل عشراتِ السّنين! ولكن الربيع قائمٌ فقط في جنوب هذا الكوكب، ويُقابلُهُ في الشمال "فصلُ الخريف"! وطبعًا سننزلُ بحول الله في الجزء الربيعي.. نحنُ الآن أمام كوكبٍ كثير العواصف.. وشديد البرُودة.. مُعدَّلُ الطقس يُقاربُ 200 درجة تحت الصّفر.. الإنسانُ هُنا يُواجهُ قساوة الطقس بذكاء خارق، وعملٍ مُتواصل جبّار.. وأصعبُ الأعمال يقومُ بها الآليون.. إنهم الملايينُ من الرّوبوت يحفرُون الخنادق، ويشُقُّون الطُّرُق، ويُشيّدون، ويُحوّلون الشوارع إلى أقبيةٍ شفّافة بداخلها المكيِّفاتُ التّسخينية، لتمكين الكائنات الحيّة من التّنقُّل والعيشِ في ظروف طقسية تسمحُ باستمرار الحياة.. إن الإنسان في "نبتُون" يتنقلُ من مكان إلى آخر، وحتى بالشوارع، في أقبيةٍ عمومية تحمي من البرودة الجليدية.. ولهذا السبب، فإنّ التّجمُّعات السّكنية ترتبطُ فيما بينها بالقطارات.. ومن لا يركبُ القطار، عليه أن يركب طائرته الشخصية، أو سيارته الخاصّة، أو بذلته الفضائية التي تتوفر على الأوكسيجين والماء ووسائل تفريغ النفايات الذاتية.. كما تتوفرُ هذه الألبسةُ على وسائل مُتنوّعة

للاتصالات الكونية بالصوت والصورة.. فالمرءُ يمكنه أن يستخدم أزرارَ بذلته للاتصال الهاتفي والتلفزي، وحتى حذاءَه لنفس الهدف.. ويُمكنُه أن يستقبل أية مكالمة محلّية أو كونية، في أيّ من الأجهزة الدقيقة المثبّتةِ في لباسه.. وأكثر من ذلك، فإنه يحمل في بعض أعضائه الجسمية، مثل اليديْن والقدميْن، أو حتى الأذُنين، أجهزة دقيقة مزروعة فيها، من أجل استخدامها للتواصل مع الآخرين.. والناسُ هنا يتزوّجون، ولكن في غالب الأحيان بالمراسلة.. وهذه مشكلةٌ اجتماعيةٌ يحاولُ "النبتُونيون" التّغلُّبَ عليها.. فالحياةُ هنا انفرادية، عكس ما هي عليه في كوكب الأرض.. كلُّ فرد يعيشُ لنفسه.. وهو لا يلتجئُ إلى غيره إلا في بعض المناسبات.. ولذلك، نجدُ "النبتُونين" لا يُنجبون الكفاية.. وهذا ما يجعلُ الساسين يتخوّفون على مُستقبل التعمير الحياتي في هذا الكوكب.. إنها حضرات السيدات والسادة ورقةٌ تذكيرية بالواقع الذي نحنُ مُقبلون عليه، ومُقبلُون على التعامُل معه.. فاستعدُّوا لاقتحام الغلاف الجوي للكوكب الأزرق.. وعلينا أن نتهيّأ للتعامُل مع هذا الطقس.. فالبرودةُ هُنا جليدية، ومصْدَرُها كونُ الشمس تصلُ ضعيفة إلى هذا الكوكب.. الشمسُ تَصنعُ في الأرض طقسًا مُعتدلا، لأنّ أرضنا تسبحُ في مدار قريبٍ من لهيبِها.. في حين يقعُ مدارُ "نبتُون" في حزام كوني بعيد عن الشمس.. وهو أزرقُ بفضل السّحُب الغازية الكثيفة في أجوائه.. إنها غازاتُ الهيدروجين، والهليوم، والميثان، تجعلُ هذا

الكوكبَ غنيًّا بموادَّ لا وجود لها عندنا في كوكب الأرض.. وتأمّلوا معي الأجواء العُليا التي نراها إلى يمين وشمال مركبتنا.. تلاحظون أن كلَّ توابع "نبتُون" هي الأخرى تتلألأ بالإبهار في عُرس الربيع.. أشكرُكم على إصغائكم.. وأشكرُ مركبتنا الغالية المركبة.. انتهى البيان»..

ما زالت "سُونا" إلى جانبي..

ابتسمت: «توضيحاتُك يا قائدنا تُشفي الغليل.. ولكنك لم تذكُر شيئًا عن اللغة "النبتُونية"»..

وقلتُ: «يا "سُونا".. ليس في الكون أجمل من لُغة الأرض!»..

أشرقَ مُحيّاها: «نعم يا قائدنا.. وكيف ننساها؟ لُغةُ الأرض فيها تُراب، أحاسيسُ ونُكهة.. فمهما تخاطبْنا مع سكان "نبتُون" باللغة الكونية التي تعلّمناها في مدارس كوكب الأرض، فإن لُغةَ الأرض تبقى رضيعتَنا.. إنها أمُّنا!»..

ـ معكِ الحقُّ يا رفيقتي.. فاستعدّي للكلام باللغة الكونية.. لغة النّضج.. ابتكرَها سُكانُ الكواكب الشمسية، مُستمدين إياها من الموسيقى والرياضيات ومختلف العلوم والفنون والمهارات، ومن التراث الحياتي لكوكب الأرض، مهد الحضارة.: إن اللغة الكونية، ما هي إلا اتّحادٌ للُغات الأرض.. فلُغاتُ الأرض اندمجت في واحدة.. وهذه اندمجت في لغات كواكب الشمس، فأصبحت لنا جميعًا، على الأرض كما في أخوات الأرض، لُغةٌ واحدةٌ هي اللغةُ الكونية.. وإنّ

بيننا وبين سكان " نبتُون" هذه اللغةُ الكونية المشتركة.. وما أعظمها من لغة.. ليست مُشَفَّرة.. وهي واضحة.. سهلةُ الاستعمال.. سهلةُ التّطويع»..

وفي هذه اللحظة بالذات، تظهرُ دوريةُ الجمارك من السُّحُب الغازية الزرقاء، الحامية لهذا الكوكب الرّبيعي..

وتلتفُّ ببنادقها الإشعاعية حول المَرْكبة، وتسألُني عن الحمُولة، فأقولُ «ألفٌ من السيّاح الأرضيين»..

ـ وكم عددُ النساء؟

ـ النساءُ 365، والرجالُ 355، والأطفالُ 280 ذكُوراً وإناثًا..

ثم تسألُني دوريةُ الجمارك عن "بضاعتي" الشّخصية أنا قائدُ المركبة، فأجيبُ إنها جُملةُ أفكار وتخيُّلات..

وتسألُ عن طبيعتها، فأُجيب: «تصوُّراتٌ لتطوير حضارتكم!»..

ـ وهل هذه نفسُ تخيُّلات الرُّكّاب؟

ـ لستُ أدري.. ففي عالمنا الأرضي تنوُّعاتٌ في الرأي.. وعلى هذه التّنوُّعات نعتمدُ لتحقيق التطوُّر المنشُود..

وتقولُ دوريةُ الجمارك النّبْتُونية بلهجةٍ صارمة: «لقد صدر قرارٌ جديدٌ يمنع استيراد الأفكار الأرضية، مهما كانت ملفُوفةً في قوالبَ برّاقة.. واستيرادَ أيِّ شيء وأيِّ كان.. فعُودوا بسُيّاحكُم وأفكاركم إلى أرضكم.. لن نقبل بعد اليوم أفكاراً ملغُومة!»..

ـ أفكار ملغومة؟ ليست كذلك.. إنها أفكارٌ بنّاءة.. ثم إنْ في

المركبة سُيّاحًا مُحترَمين.. وفيهم نُخبةٌ من كبار العُلماء...!

ـ العُلماء؟

تُقاطعُني الدّورية: «ومتى كان لكم تقديرٌ للعُلماء؟ أنتم لا تجنحُون إليهم سوى عندما تجدُون أنفُسَكم في طريق مسدود.. هذا الواقعُ الأرضي بلغ إلى علمنا.. والتّحايُلُ لم يعُد ينطلي علينا.. وبوضُوح: لم نعُد نقبلُ أحداً من كوكب الأرض.. لقد تم قطعُ العلاقات معكم، لأنكم أفسدتُم الكونَ، ولا يُمكنُ الاعتمادُ عليكم للإتيان بأفكارٍ سليمة.. لن نقبلَ أحداً منكم.. ولن نقبلَ حتى موادّكُم الغذائية التي تُصدّرُونها إلينا.. فقد اكتَشفْنا أنْ ليسَتْ كلُّها صحّية.. فيها أغذيةٌ مُلوّثة.. إنّ العلاقاتِ معكُم منذُ اليوم مقطُوعة.. فعُودُوا من حيثُ أتيتُم!»..

ـ عُودُوا من حيثُ أتيتُم؟! وما العملُ لإثباتِ حُسنِ نوايانا؟

قالت "دوريةُ الجمارك": «الخُطوةُ الأولى تبدأ برسالة.. على "الأرض" أن تكتُب رسالة تُوضحُ فيها الخلل الذي أصاب شؤون كوكبكم.. والخلل الذي طغى على علاقاتكم مع "نبتُون".. وبواعث ازدواجية الشخصية لديكم.. وأسباب انعدام الوفاء في عالمكم.. وأسباب الغشّ في تعامُلاتكم.. لا بُدّ من رسالةٍ خطية.. رسالة بخطّ يد مسؤولكم الأول.. وأن تُبعث الرّسالةُ عن طريق البريد التقليدي إلى مسؤولتنا الأولى: سيادة الرئيسة "تيتا".. وبهذا يمكن أن تنشأ بيننا علاقةٌ جديدة، على أساس جديد.. إنّنا لن نقبلَ أية مُراسلة

إلكترونية، ضوئيةً كانت أم هوائية أم هُما معا.. الثقةُ الإلكترونية بيننا أصبحت مفقُودة.. وإذا كانت فهي لم تعُد مُجدية.. فقد شلّتْها خِداعاتُكم وتلاعُباتُكم.. علاقتُنا يجبُ أن تبدأ من الصفر.. فاكتبُوا إلينا بالبريد العادي.. نُريدُ اعترافاتٍ واضحة، وبخطّ يد مسؤولكم الأول.. عندئذ سنبحثُ الكيفية التي يمكنُ بها أن نُنشئ معكم علاقاتٍ جديدة، وهذه المرة على أساس متين»..

ـ وما العملُ الآن؟

ـ هو أن تعودوا من حيث أتيتُم.. وإذا كنتُم مُلحّين على استراحة تقنية، فتعالوا نستضِفْكم في "واحة المخادعين"!..

سألتُ: وما "واحة المخادعين"؟

قال: «محطة نستقبلُ فيها كلّ من لم يُثبتْ بعدُ جدارتَهُ للتعامُل معنا.. هناك سنَستضيفُكم شهْراً، ثم نُزوّدُكم بالمؤونة، ونُطلقُ سراحكم!»..

ـ تُطلقون سراحَنا؟ وهل نحنُ في حالة اعتقال؟

أجاب: «إذا قبلتُم المكوث في "واحة المخادعين"، فأنتُم مبدئيًا في وضعيةٍ تُشبه الاعتقال، لأنه سيكونُ غيرَ مسمُوح لكم بمغادرة هذه المحطة، إلا بترخيص، أو عندما تُقلعُون منها باتجاه أرضكم»!

قلتُ: «امْهلُونا بعض الوقت للتّشاوُر!»..

أجاب: «لكم ساعة واحدة للاختيار بين أنْ ترحلُوا فوراً إلى كوكبكم، أو نستضِفْكم شهْراً في "واحة المخادعين"!»..

أخبرتُ الطاقم، والرُكاب، بكل التفاصيل..

وبعد الأخذ والرَدّ، اتّفقَ الجميعُ على الضيافة..

وبدأنا النزول في مطار "واحة المخادعين"..

❐ كان في استقبالنا مجموعةُ نساءٍ ورجال وأطفال..

تقدّم منّا طفلٌ في عامه العاشر، تقريبًا..

وحيّانا باسم "واحة المخادعين"..

وقادَنا إلى صالةٍ كبيرة.. أدْركْنا أن هذا الطفل هو زعيمُ المحطة، فالكُلُّ خلفَهُ يأتمرُ بأوامره..

ولم نعرف إلا فيما بعد أن هذا ليس في عامه العاشر، وليس طفلاً كما كنّا نتصوّر، هو أكبرُ سنًّا من كلّ المحيطين به.. ففي هذا الكوكب يتشبّبُ المرءُ عامًا بعد عام، إذا كان سعيداً بعمله..

وكلُّ مجهود هادفٍ بنّاء يُساعدُه على الرّشاقة، بعد أنْ تمكّنَ علماءُ "نبتُون" من تحويل العمل إلى طاقةٍ تُغذّي الجسم..

ما زلنا نحنُ البشر نقيسُ الأعمارَ في "نبتُون" بمقياس كوكب الأرض.. ففي الأرض يبدأ المرءُ صبيًّا وينتهي عجُوزًا، بينما في "نبتُون" لا تشيخُ الأدمغةُ النَشيطة.. على العكس تستعيدُ حيوية الطفولة النابغة، لدرجة أنك قد ترى طفلاً وما هو بطفل..

وهذا ما يُفسّرُ عُنفُوانَ الزعيم الذي يبدُو لنا في الطفولة، بينما هو في سنّ "النُضج الأكبر"!

قال : «أنتم الآن في متحف ضوئي يحتضنُ عيّنات لتسلْسُل الحياة في مجمُوعتنا الشّمسية.. وسنعرضُ عليكم إحدى اللقطات الأسطُورية التي تعتزُّ بها هذه المحطة»..

وهذه صالةٌ كبيرةٌ دائرية، تستوعبُ الآلاف من المقاعد..

وفي الوسط شاشةٌ عملاقةٌ يستطيعُ من خلالها كلُّ الجالسين رؤية ما تعرضُه من وثائق صوتية مرئية ثُلاثية الأبعاد..

وتكلمَ الزعيمُ من جديد : «ما دُمتم تقبلُون أن نستضيفكُم شهْرًا، فعلينا واجبُ إكرام الضّيُوف.. مرحبًا بكُم.. فمهما تكُن خلافاتُنا فنحنُ جميعًا ننتمي إلى أسرة واحدة هي مجموعتُنا الشّمسية.. وهذا يعني أن أمّنا واحدةٌ هي الشمس.. منها أتيْنا وإليها نعُود.. وخلال مُقامكم، سَنسْعدُ بوجودكم عبر برنامج فلكلوري سياسي، وطبعًا خيالي تخيُّلي.. ومن هذه التخيُّلات التي نعتزُّ بها، سنعرضُ عليكم واحدةً من أهمّ أساطيرنا، لتطّلعُوا على بعض جذُورنا التي هي أيضًا جذُوركم.. ونشرعُ حالاً في تنفيذِ هذا البرنامج الذي أعدّهُ لكم، وبالسُّرعة المطلوبة، ثُلّةٌ من خيَرةِ شبابنا»..

ابتسَمَ الزعيمُ وهو يلتفتُ إلى النساء والرجال المحيطين به..

ـ هؤلاء هُم الشّباب !

ثم أعطى الإشارة لإطفاء الأضواء..

❐ قدّموا لنا "أسطورة طنجة"..

أسطورةٌ بطلتُها مدينةٌ تنخدعُ بمسؤوليها.. وهؤلاء يتآمرون عليها.. ينهبُونها.. يُمرغُون كرامتَها في الرحَل!

وبعد طُول معاناة، تصرُخُ المدينة، وتنزعُ الثّقةَ منهُم، وتستعيدُ حقُوقَها، وقد تعلّمتْ كيف تختارُ من يُمكنُ أن تأتمنهُم على شؤونها..

وعلى الأسطورة علّقَت سيّدةٌ "نبتُونية": «هذه واحدةٌ من الصُّور التُّراثية التي تكشفُ ازدواجيةَ التعامُل البشري على كوكب الأرض.. فكثيرٌ من الأرضيين تجدهم ظاهريّا بوجه، وباطنيّا بوجه آخر.. ونحن لا نقبلُ إلا وجها واحدا.. ونتبنّى مقولةً خالدةً استقاها أجدادُنا من الأرض، وهي واضحة: «ذُو الوجوه لن يكون عند الله وجيهًا!»..

ثم نظرَتِ "النبتُونية" إليّ: «ما رأيُكَ يا قائد "مركبة الأرض"؟»..

السؤالُ مُوجّهٌ إليّ..

ولا مفرّ لي من الجواب..

وقفتُ وحيّيْتُ الحضور، ثم قلتُ: «يا سيّدتي.. إن "طنجة" التي عرَضَتْها الأسطورةُ ليست نفس "طنجة" اليوم.. فاليوم ليست "عروس الشمال"، كما كان يُسمّيها الأقدمون، بل هي من أبرز "عرائسِ كوكب الأرض".. وفيها نساءٌ ورجالٌ وأطفالٌ نعتزُّ بهم أيّما اعتزاز، خلْقًا وخُلُقًا وعلمًا وحكمة.. إن هذا الواقع الجديد لا ينفي أن "طنجة" قد مرّت بحقبٍ من المدّ والجزْر، في مسارها التطوُّري..

وأشكُرُكم باسم المركبة وأعضاء الطاقم، ونيابةً عن السّادة المسافرين الحاضرين معنا، على أن ذكّرْتُمونا بصورة حقيقية من الصور التي عاشها أجدادُنا في كوكب الأرض.. ونحن نعتزُّ بهذه الصور، ونعتبرُها حقائق تاريخية يجبُ أن نعتمدها للاستفادة من الماضي، من أجل إقامة علاقات كوكبية نابضة بالصدق والتعاوُن.. وإنّنا رهن إشارتكم، ونحنُ في ضيافة هذه الواحة الجميلة!»..

وصفّقت القاعة..

وردَّ الزعيم: «أشكُرُك على الاعتراف بالخلل الذي عرفتهُ مسيرةُ كوكبُ الأرض، وعلى الدعْوة إلى انفتاح كوكبي من أجل تعاوُن حقيقي، بعيدا عن أية مُضايقات»..

ثم ابتسم: «هذا يعني حضرات السيدات والسادة، أنكم لستم في حالة اعتقال، أو شبه اعتقال.. انتهى التّحفُّظُ من وجودكم.. هذا قرارٌ اتّخذتهُ سُلُطاتُنا المركزية، بقيادة الرئيسة "تيتا".. وقد أُخبرتُ به في رسالة خطيّة وصلتني اللحظة.. وإنني باسم دولة "نبتُون" أرحّبُ بكم.. وإذا كنتم لا تقبلُون الضيافة، فأنتم أحرار، تستطيعون السّفر حالاً.. وإذا تفضّلتُم بقبُول ضيافتنا لمدة شهر، فمرحبًا بكم في "ناطحة الضيافة"!»..

صفّقْنا جميعًا للزعيم..

وشكرْنا في شخصه كلّ الأسرة "النبتُونية"..

وخرجْنا من صالة الخطابات التّرحيبية..

وفي باب الطابق الأسفل للبناية، كان قطارٌ بانتظارنا..

قطار يتكوّنُ من تسع عربات..

لماذا تسعة؟

قالت مُضيفتُنا الرُّوبوتية: «لأنّ هذا رقمُ الوحدة في "نبتُون"..

فعندَنا يُعتبرُ من الرّموز.. فيه تتجمّعُ كل التناقُضاتُ وتنصهرُ لتُشكّل جسمًا واحدا.. إننا هُنا بالتّسعة نتفاءل.. وفي التّسعة نتّحد..

فتعالوا معنا إلى قطار الوحدة!»..

"سُونا" اختفتْ وسط الحشُود.. أبحثُ عنها ببصري يمينًا وشمالاً ولا أراها..

ستظهرُ حتمًا بعد قليل.. فلا يُمكنُ أن تكون إلا في هذه الجموع..

وأخذ الناسُ يصعدون إلى القطار..

ليس مثل قطارات كوكب الأرض.. هذا قطارٌ من ثلاثة طوابق..

وهو بلا سكّة حديد..

ناداني الزعيمُ للجُلوس إلى جانبه..

وصرْنا نتجاذبُ أطراف الحديث..

سألتُه عن السّكك الحديدية فأجاب: «لا وجود لها بالشكل الفُولاذي المعروف لديكم.. ولكن تقومُ مقامَها رقائق مغناطيسية مُثبّتةٌ في أرضية كل الأمكنة التي تَتنقّلُ عبرَها القطارات.. وهذه القطَعُ تُديرُها أدمغةٌ إليكترونية، لتحريك القطارات وضبط اتجاهاتها

ومُراقبة كل شبكة النقل الحديدية»..

وسألتُه عن الطبقات الثلاث، فقال: «عندنا مشروعٌ أضخم، وهو تصنيعُ قطار بعَشْر طوابق.. لماذا؟ الجوابُ هو أن المنهجَ السياسي لدولة "نبتُون" يقضي بالعمل على تجميع الناس في مراكز سكنية، حتى نتغلّبَ على المشاكل الطقسية التي تُعتبر أكبر عقبة في حياتنا.. ومن هذا المنظور، فإن قطاراً من عشرة طوابق يستطيعُ أن يعفي المدينة من آلاف السيارات.. وفي هذا توفيرٌ للمجهود العمومي، وتقريبٌ للإدارات والمصالح من الناس»..

وما زال الزعيمُ يتكلمُ حتى كدتُ أصابُ بالإغماء.. فالتَعبُ قد أخذ منّي كلَّ مأخذ..

بدأ القطارُ يرتفعُ بنا..

ويتحولُ إلى طائرة!

ومن الجوَ تظهرُ "واحة المخادعين" وكأنّها مُجرّدُ منصّة للإقلاع والهبوط، يُحيطُها بساطٌ أخضر..

سألتُ: «وما هذه الغابة؟»..

قال: «ليست غابة.. هي أعشابٌ غذائيةٌ تنمُو بالليل والنهار، وتستكملُ نُمُوّها في يوم "نبتُوني" واحد.. الأعشابُ تتغذّى بالضوء الشمسي، حتى وهو محدود، وتمتصُّ طاقتَها من الغازات المحيطة بنا.. وهذه الأعشابُ هي المادّةُ الخام لصناعاتنا الغذائية.. إنّ كل يوم عندنا يأتي بمحصول، بفضل العلم الغذائي الذي يُوفّرُ حاجتنا بدون الاعتماد

على أحوال الطقس، كما هو الحالُ عندكم.. وإنّ لنا في "واحة المخادعين" عدةَ حقُولٍ للأعشاب السريعة النُّمُو.. وهي حقولٌ أقمْناها في فضاءات حول المحطّة.. كلُّ حقل مُستقلٌ عن آخَر.. ونستطيعُ أن نُنشئ من هذه الحقول السابحة في الأجواء أعداداً لا حصر لها، ما دام الفضاءُ الكوني مُترامي الأطراف، بلا نهاية»..

القطارُ يطيرُ بنا في أجواء سلسلة من البساطات الخضراء والزرقاء والصفراء والحمراء..

قال الزعيمُ: «كلُّ لونٍ يُنتج أنواعًا من الأغذية "النبتُونية".. ولنا في كلّ حقل جيشٌ من الناس الآليين، يسهرُون على تنمية الأعشاب وفواكه الماء الشَّرُوب، بينما يقومُ آليون آخرون بنقل المحاصيل الجاهزة للاستهلاك، عبر القطارات الطائرة، إلى التجمُّعات السَّكنية»..

وأخيراً وصلنا إلى أكبر مدينة في "واحة المخادعين"..

ودخَلَ القطارُ إلى الطابق الأسفل لفُندقٍ شاهقٍ يُذكّرُنا بناطحات السحاب الأرضية..

بدأ الرُّكّابُ ينزلون، وعيْنايَ تبحثان عن "سُونا": «... فأين أنتِ يا "ذاتَ الأخبار السّارّة"؟»..

لم يُمْهلني الزعيمُ أُواصل البحث عنها.. فقد دعاني إلى أن أركب معهُ مصعدَه الخاصّ في النّاطحة.. ضغط على الزرّ الأعلى في اللوحة الضوئية.. هكذا هي المصاعدُ عندنا في الأرض.. ارتفع ولم يتوقف إلا في الطابق المائة..

قال الزعيم: «في هذه الناطحة عدة مصاعد، وقد صنعها لنا مُهندسُون من أرضكم.. وفي كل طابق سيُقيم مائةٌ من زُوارنا القادمين برُفقتك.. وطبعًا يوجدُ في الناطحة زوارٌ آخرون قد تتعرَفُ على بعضهم فيما بعد.. وهؤلاء قدموا إلينا من كواكب أخرى.. وهم أُطُرٌ تُساهمُ معنا في تحديث "واحة المخادعين"»..

توقّفَ المصعد، ورافقني الزعيمُ إلى باب شُقّتي، وسلّمني المفتاح، ثم جدّد التَرحاب، وانسحَب بعد أن أخبرني أنه مُقيمٌ في الشُقّة المجاورة، وأنّني إذا احْتجتُه ما عليّ إلاّ النَقْر على المفتاح مرّتيْن..

ـ لماذا مرّتيْن يا سيادة الزعيم؟

أجاب: «النّقرةُ الأولى خاصة بشُقّتك.. والثانية خاصةٌ بي، أنا زعيمُ الواحة»..

شكرتُه وفتحتُ الباب..

❐ هذه شُقةٌ من ثلاث غُرف.. وفيها حمّام..

هي من صنف الشُقق المعروفة عندنا في الأرض..

في هذه الشُقّة ألمسُ بصمات الإنسان..

أفتحُ الغرفة الأولى فأجدُ سريراً مفرُوشًا كما هو الحالُ في فنادق الأرض..

وفي الغرفة الثانية مكتبٌ وتلفازٌ كبير يُمكن استخدامُه حاسوبًا للاتصالات الصّوتية والمرئية والمكتوبة..

ولكن الغُرفة الثالثة كانت لي مفاجئة.. فما أن فتحتُها حتى انتصبَ أمامي اثنان من الرّوبوت، أحدُهما بشكل أنثى، والآخر بشكل رجُل.. انحنَيا وهُما يؤدّيان التحية: "مساء نبتُوني" !»..

وتقدَّمت الأنثى فقالت إنها رهن الإشارة لخدمتي داخل الشّقة.. وقال رفيقُها إنه مُتخصّصٌ في خدمة الزبناء في الخارج..

هُما هُنا لتقديم أية خدمة، داخل الشّقّة وخارجها..

شكرتُهما وتمدّدْتُ على الفراش..

إنّي في حالة تَعبٍ شديد..

وبعد حوالي عشر دقائق، فاجأني صوتُ الأُنثى في مخدّتي.. أدركتُ أنه مُكبّرُ الصوت مدفونٌ في المخدة..

قالت: «يا سيّدي.. نسيتَ أن تنزعَ لباسك.. ونسيتَ أن تدخُل الحمّام.. فهل أُذكّرُكَ باللباس والحمّام؟ أم تُفضّلُ النّسيان؟»..

قلتُ ضاحكًا: «النّسيان.. فالنّسيانُ من طبيعة أهل الأرض»..

وردّت: «إذا احتجتَ أيَّ شيء، فاضغط مرةً واحدة على مفتاحك.. وإياك أن تضغط مرتيْن.. فإذا فعلتَ فإن الضغطةَ الثانية سيسمعُها الزعيم.. وسيفهمُ أنك تريدُ مخاطبتَه!»..

قلتُ: «يا سيّدتي، أريدُ أن أسألك عن رفيقةٍ لي كانت بجانبي خلال رحلتنا من كوكب الأرض.. اسمُها "سُونا".. أين هي؟»..

أجابت: «سأبحثُ عنها حالاً.. فهل تُريدُني إخبارك الليلة؟»..

ـ نعم..

واختفى صوتُها..

ثم عدتُ إلى نفْسي..

واستفهاماتٌ تقفزُ أمامي: أين "سُونا"؟ هل الزعيمُ ليس طفلا؟ هل هو حكيمٌ في هيأةِ طفل؟ ومن يكون الرجال والنساءُ والأطفالُ الذين كانوا مع الزعيم في استقبالنا؟ ومن هم الأطُر الذين قيل لنا إنهم يشتغلون هنا؟ ولماذا نحنُ مرفُوضون؟ ولماذا يقْبَلُونَنا مجردَ ضيُوف؟ ولماذا ضيافةُ شهر واحد فقط؟ ما معنى الشهر؟ هل هو الشهرُ "النبتُوني" أم الأرضي؟ وماذا كان يقصدُ مُضيفُونا بعرض أسطورة "طنجة"؟ وماذا ستأتي به الأيامُ القادمة؟ هل سيُبْقُوننا في "واحة المخادعين"؟ أم ينقُلوننا إلى محطات أخرى؟ ولماذا لا تحْدثُ مُعجزةٌ فيُنظّمون لنا زيارة إلى كوكب "نبتُون" نفسِه؟ ولماذا يُصرّون على أن تكتُب "الأرضُ" رسالة خطّية تُوضح فيها الخلل الذي أصاب شؤونَها، والخلل الذي طغى على علاقاتنا مع "نبتُون"؟ لماذا هذا؟ ولماذا ولماذا ولماذا؟

تساؤلاتٌ بلا أجوبة..

و"الرُّوبُوت" الأُنثى تتكلّمُ في مخدَتي..

تقولُ إنها لم تجد "سُونا"..

أين هي؟

لم أنَمْ تلك اللّيلة!

□ في الصباح خرجتُ إلى الشّرفة..

السّماءُ مُلوّنةٌ بغمامٍ شفّافٍ مُتحرّك..

ألوانٌ متنوّعةٌ تلبسُ أشكالاً وأشكالاً من السُّحُب "النبتُونية"..

الشُّرفة شاهقة.. هي أيضًا مُحاطةٌ بالزُّجاج.. أطلُّ منها فلا أرى أسفل الناطحة.. أنا فوق السّحاب الصباحي الملوّن..

وأضغطُ على مفتاحي ضغطةً واحدة..

وتأتيني "الرُّوبُوتة"..

ترتدي بذلةً بيضاء.. وفي يدها سمّاعة..

قالت: «أهلا بك في أول صباح "نبتُوني".. أنا طبيبة.. في الصباح طبيبة.. فهلاَّ تفضّلْتَ بتمكيني من قياس ضغطك؟!»..

وضعتْ شريطًا صغيرًا على أُصبُعي، ثم قالت: «ضغطُكَ انخَفَض.. أنت بحاجة ماسّة إلى قُبلة.. فعُدْ إلى سريرك»..

أدخلتْني إلى الشُّقّة..

تمدّدتُ على السّرير..

أمرتْني بأن أغمض عينيّ..

ووضعَتْ على جبيني منديلاً.. ونقلَني المنديلُ إلى عالمٍ آخر..

وجدتُني مع "سُونا"..

أقبّلُها.. وأقبّلُها.. وأقبّلُها..

وما زلتُ أُقبّلُها حتّى أيقظتْني الطبيبةُ، إذْ أزاحت المنديلَ عن جبيني.. وقالت: «عندك التّضخُّم العاطفي»..

ـ وما الحلُّ يا طبيبة؟

أجابت: «أن تُستأصَلَ منكَ الزّوائد.. عمليةٌ جراحية تجعلُك مثل بقية الخلق هُنا، بعاطفة مُحايدة، لا بعاطفةٍ تحشُرُ أنفَها في الصغيرة والكبيرة»..

ـ ولكن يا طبيبة، هل ما هو عندي، يفُوقُ حدّه الطبيعي؟

قالت: «أجل.. وهذا ما يجعلُ الخوف منك أمراً مُحتملا.. فمن في مثل حالك، يمكنُ ألا يحصُر النّبضات في المحبوب، بل قد يتدخلُ حتى في شؤون غيره.. هذا هو حبُّ التّملُّك.. الحبُّ المستحوِذُ على الآخر.. هذه هي الزائدة العاطفية التي أنصحُك باستئصالِها، أو على الأقلّ تجْميدِها!»..

فكّرتُ مليًا ثم أجبتُ: «لا يا سيّدتي.. فأنا مملُوكٌ قبل أن أملك.. ولا أُحسُّ بنفسي إلا من خلال هذه الزائدة.. هي تمنحُني إحساسي بنفسي وتجعلُ الغيْرَ غاليًا في قلبي»..

ـ وعن أيّ قلبٍ تتحدّث؟

ـ وهل في الإنسان عدةُ قلوب؟

قالت "الرُّوبُوتة": «طبعًا.. وله قلبٌ مُتخفٍّ كامنٌ في اللاّشعُور»..

صرختُ: «هذا هو قلبي.. به أتحرّكُ.. وبه أتعامل.. ومن أجله أنا أحيا!»..

سكتتِ الطبيبةُ الآليةُ لحظةً ثم قالت: «أنتُم معشرَ البشر هكذا، لكُم شخصيةٌ خفيّةٌ تقفُ وراء شخصيتكم الظاهرة.. وهذه الخفيّةُ هي

من أفقدكَ النَوم.. هي من جَعلكَ سهْرانًا.. وإلاّ، فمن طيّرَ النومَ من جفنيْك؟»..

غلَبَني الضّحك: «يا سلام! أنت تتكلّمين مثل الشُّعراء عندنا.. هُم أيضًا يتحدّثُون عن الجفُون.. والجفُونُ تعبيرٌ مشحُون بالشّاعرية.. مشحونٌ بهذا اللاّشعُور النّابضِ بالحُبّ الفيّاض.. فهل عندكِ أيضًا هذا اللاّشعُور؟»..

ابتسمَت الطبيبةُ الآليةُ وغيّرت الموضوع..

قالت: «قُبلةُ المنديل جعلتْ ضغطَكَ يستعيدُ طبيعتَه، ولكنك بحاجة إلى شُحنةٍ من النّوم.. وهذه الشُّحنة لن تتناولها في سرير النوم، بل على مائدة الفطور»..

ـ وما هي؟

قالت: «لا تخَف! هي بَلْسَمٌ في وجبة الفطور.. فجهِّزْ نفسَك لفُطُور جماعي بسطح هذه الناطحة»..

ثم خرجَتْ..

وما هي إلاّ لحظات، حتى كنتُ برُفقتها في المصعد..

□ طلعْنا إلى السّطح..

السّطحُ خيمةٌ زُجاجية تجعلُك تشعُرُ أنك سابحٌ في الغمام..

الخيمةُ مقهًى يُشْبهُ بعضَ مقاهي كوكب الأرض، ولكن كراسيه من نمط آخر.. فما أن دخلتُ من باب الخيمة، حتى احْسَسْتُ بالجذاب إلى

كُرسيَ دون غيره.. إنه المفتاحُ الخاصُّ بي يُوجّهُني إلى ذلك الكُرسي بالذات..

وأجلس..

وتدخُلُ الحشودُ تباعًا إلى الخيمة..

إنهم الضيوفُ يتبادلُون تحيةَ الأرض..

أنا لا أعرفُ منهم إلاّ قلّة.. وطبعًا أعرفُ "سُونا".. لا شكّ أنها ستظهرُ مع الناس..

أتأمّلُهم واحدًا بعد الآخر.. أطفالٌ ونساءٌ ورجال يأخذُون مقاعدهم.. ولا أثر للرفيقة "سُونا"!..

فأين أنتِ؟

أين أنتِ يا "سُونا"؟

وبينما أنا أتساءل، طارَ مفْتاحي إلى أذني اليُمنَى، وبدأ يتكلم: «صباحُكم "نبتُوني".. هذه تحيتُنا الصباحية.. وبها نتمنّى لكم إقامة مُريحة.. إنّ كلَّ واحد في المقهى يسمعُ هذا الخطاب.. وهذا من خاصّياتِ المفاتيح التي يحملُها كلُّ واحد منكم.. فكلُّ المفاتيح مُتشبّثةٌ في هذه اللحظة بآذانكم جميعًا.. المرجو أن تتّبعُوا طقوسَ الفطور.. فكلُّ واحد منكم جالسٌ على كُرسي خاص به.. وهذا من طقُوس الفطور عندنا.. فنحنُ هُنا بدأنا نُطبّقُ تقنيةً تربوية، يتمُّ بموجبها تعليمُ كل إنسان أن يعيش بمُفرده.. كيف تعيشُ وحدك؟ هذا سؤالٌ مهمٌّ في عصر الرحلات الفردية في طول السماوات وعرضها..

فمُهمٌّ جدًّا أن يعرف الإنسانُ كيف يعيشُ بمُفرده حتى وهو في جُموع من البشر.. وهذا لا يُلغي الجناحَ الآخر من نفس التربية، وهو أن يتعلم المرءُ كيف يكونُ جماعيًا حتى وهو بمُفرده.. ومن تقنيات الانفرادية في الجماعة، ثم الجماعية في الانفرادية، هذا الفطورُ الفردي الجماعي.. وألتمسُ من كل واحد منكم أن يختار الفطور الذي يُناسبُه.. وأمامكم في الطاولة عدةُ أزْرَار.. اضغطوا على واحدٍ لا غيْر.. لكم أن تختاروا فطورا واحدًا.. واحدًا فقط.. فاضغطوا! وصباحُكم "نبتُوني" !»..

ضغطتُ على الزرّ الأخضر، فانفتحَت المائدة، وبها ثلاثُ مُعلّبات.. انفتحت المعلّبةُ الأولى، ونطَقَتْ: «إليكَ حُلوَى.. فكُلْها!»..

الحلوى في شكلِ قضيبِ شكولاتة.. قضمتُها..

أتيْتُ عليها قطعةً قطعة..

ثم انفتحَت المعلّبةُ الثانية، فظهر منها منديل.. وقالت المعلّبةُ: «امسحْ به عينيْك!»..

مسحتُ بالمنديل عينيّ..

وظهرت المعلّبةُ الثالثة بمرْهَم، وقالت: «ضعْهُ على يديْك!»..

وهذا ما فعلتُ..

ثم قال المفتاحُ في أذنيّ: «انتهى الفُطور.. إنهُ غذاءُ شهر واحد بالتوقيت الأرضي.. وعليكم بالتفضُّل بالخروج.. وبرُفْقتكم نستقبلُ

يوماً آخر»..

في أسفل الناطحة وَجدْنا الزعيم واقفًا ينتظرُنا..

قال: «أنتم الآن بصحّة جيّدة.. فـفطُوركم أخبرَنا بأن حالتكم مُهيّأة لبرنامج شهرٍ كامل.. فمن فُطوركم وصلتْنا تفاعُلاتٌ كيماويةٌ بها نقيسُ الحرارة لدى كل منكم، والضغط، ودقّات القلب، وغيرها من ضروريات الفحص، فتبيّنَ بالملمُوس أنّ هيأتكم البيُولوجية على ما يُرام.. فأهلاً بكم إلى برنامج اليوم!»..

والتفتَ إليّ الزعيم: «تفضّلْ يا سيادة القائد.. خُذْ لك مكانًا إلى جانبي!»..

❐ كان موكبٌ من الحافلات قد اصطفّ في رصيف الناطحة..

الرّصيفُ أيضًا مُغطًى بخيْمةٍ زجاجية شفّافة..

ليس بالحافلات سائقون..

وقال صوتٌ في الميكروفُون: «أنتُم مَعشَر ضيُوفنا مُقسّمُون إلى عشر مجمُوعات، في كل منها مائةُ فرد، يُضافُ إليكم بعضُ مُضيفي "واحة المخادعين".. وسننْقسم بهذه الكيفية لتشكيل أوراش فُرجة.. سوف تطلعُون على مِهَنٍ يمكن أن تُفيدكم لدى عودتكم إلى كوكب الأرض!»..

وخاطبني الزعيمُ مُبتسمًا: «هذه الحافلاتُ عاقلة.. تستمدُّ طاقتها من البرودة والسخونة والجوّ المعتدل.. وعندنا مشروعٌ سيُغيّرُ المفاهيم الطاقوية إذا ما تحقّق.. إنه مشروعُ استخراج الطاقة من حرارة الحوار

بين الرُكّاب، وحتى من الخصام إذا كان الرُكابُ في حالة انفعال..

حافلاتُ المستقبل في "نبتُون" تعتبرُ كلّ حركة وكلّ مادّة وكلّ نشاط، ولو كان فكريًا، طاقة حقيقية يُمكنُ استغلالُها لتحريك نفْسها..

فالحافلاتُ بذلك تشاركُ في أيّ نشاط حركي، وتتحولُ حركتُها هي نفسُها إلى طاقة تستطيع أن تستخدمها لمزيد من الحركة.. ولذلك، لا نهاية للطاقة عندنا..ولا حدود لاستخدامات الطاقة.. ثم إن هذه الحافلات، وهي تقودُ نفسَها، تقومُ أيضا بصيانة نفسها، ومعالجة نفسها، بل وحتى التدخُّل لمعالجة رُكابها.. إنها مؤهلاتٌ جبّارةٌ تسْكُنُ هذه الحافلات.. فتفضّلْ معي!»..

سرتُ إلى جانبه..

وهذه حافلةٌ تبتسم، وتُردّدُ التّرحابَ بنا..

ونظر إليها الزعيمُ شاكراً: "صباح نبتُوني"!..

تذكّرتُ التحيةَ هُنا، فقلتُ للحافلةِ بكاملِ الأدب: "صباح نبتُوني"!..

أحسستُ أنّ الزعيم عملاقٌ رغم أنه في هيأة طفل..

طلع من الباب الخلفية للحافلة الظّريفة، وصعدتُ بعده..

كانت الحافلةُ بلا نوافذ.. وبلا زُجاج.. هي غرفةٌ واحدة بها مصابيحُ مُشتعلة..

وصوتٌ يُعلنُ أن موكب الحافلات قد انطلق..

قال الزعيم: «هُنا لا نحتاجُ إلى سائقين.. فكلُّ الآلات تقُودُ نفسَها

بنفسها.. ولعلكَ تُريدُ أن تعرف أموراً أخرى.. إذا كان كذلك، فتفضّلْ! اطرحْ ما شئتَ من الأسئلة!»..

واستَغْلَلْتُها فُرصة لأسأل عن رفيقتي: «أين "سُونا"»؟..

أجاب: «تقدّمتْ بطلبٍ لزيارة "العاصمة"، فقبلْنا طلبَها.. وهي الآن مع فوجٍ من السُّيّاح على مشارف "العاصمة"»..

ـ وما "العاصمة"؟

قال: «هي المدينةُ الرئيسيةُ في كوكبِ "نبتُون"»..

ـ وهل سوف تعودُ؟

أجاب: «طبعًا، فلا بُدَّ أن تكون برُفقتكم قبل إقلاعكُم المقبل باتّجاه كوكب الأرض»..

تنفّستُ الصُّعداء..

ـ ولي سؤالٌ آخر: ما سرُّ الفُطور؟ ما سرُّ الشكولاتة والمنديل والمرْهَم؟»..

أجاب: «نحنُ مثلكُم في عالم يتحرّكُ فيه المرءُ في مسافاتٍ لا تُحسبُ بالكيلومترات أو الأميال، بل تُحسبُ بالوحدات الزمنية، نظراً لشَساعة هذه المسافات.. ولذلك، نحن بحاجة إلى طاقة تضمنُ احتياجاتنا الغذائية لمدة لا تقلُّ عن شهر.. وقد ابتكرَ علماؤُنا أغذية صغيرة الحجم، قويّة المفعول.. ومن هذه الأغذية "شكولاتة الفطور".. إنه فطورُ شهرٍ كامل، حسب التوقيت الأرضي.. وعندنا فطورُ سنَة أشهُر، وفطورُ عام.. هذه أغذية انشطارية.. ويمكنُ تشبيهُها بالقنابل

الانشطارية، مثل قنابل الحفلات التي يحلُو للبعض تسميتها لديْكم بـ"أزهارِ الفضاء" أو "وُرود الضّياء" التي تُطلق في الأجواء خلال ليالي الأعراس.. فالشوكولاتة تبدأ في جسم الإنسان رحلة شهر أو ستة أشهُر أو عام، حسبَ المدّة المبرمَجَة، ولنا مشروعُ غذاءٍ لعشر سنوات كاملة.. الشوكولاتة مُبرمجة للانفتاح الذاتي، حيث إنها تفتحُ بالوناتها الدقيقة، التي لا تُرى إلا بالمجهر الإلكتروني، وتدفع إلى الجسم كمية من السعرات الحرارية التي سيحتاجُها خلال شهر أو عام أو أكثر.. وعندما تنتهي المدة الأخرى، تنفتحُ بالونات أخرى لمواصلة شحن الجسم بحاجته إلى مزيد من الطاقة.. ولذلك، وببساطة، فأنت لن تشعُر بالجوع سوى بعد شهر أرضي»..

ـ نحنُ أيضًا نعتمدُ طريقة غذائية مُشابهة.. وماذا عن الماء؟

استطردَ الزعيم: «الإنسانُ لا يعيشُ بلا ماء.. ولذلك ابتكَرْنا آلةً صغيرةً تُحوّلُ بعضَ إمكاناتِ الفضاء الكوني إلى ماء.. فالهواءُ يتحوَّلُ عندنا إلى ماء.. والغازات المنتشرة يتمُّ تحويلُها إلى ماء.. علمًا بأن الكون، ورغم فراغاته المهولة، مليءٌ بالجُزُرِ الغازية المنتشرة هنا وهناك.. وسترى كيف نفعلُ ذلك، في أول ورشة نزُورُها في "واحة المخادعين".. ها قد وصلنا إلى الورشة، تفضّلْ بالنزول!»..

كانت حافلتُنا هي الوحيدة التي وصلت..

بقيةُ الحافلات أخذت كلٌّ منها طريقًا مُخالفًا، فقد تم تقسيمُنا إلى مجموعات..

نَزلْنا..

□ وجدْنا في استقبالنا مُديرةَ المصنع..

هي أيضا صغيرة الحجم.. كأنّها طفلة..

حيّيْناها: "صباح نبتُوني"!..

ابتسمَ الزعيمُ لها برقّةٍ واضحة.. وابتسمَتْ لهُ برقّةٍ أوضح، وهي تردُّ علينا التّحية: «"صباح نبتُوني"! تفضّلُوا بالدخول!»..

دخلنا..

وفي الجناح الأول للمصنع، كان عشرةٌ من الآليين العاملين مُصطفّين خلفَ مائدةٍ خضراءَ عليها زُجاجاتٌ صغيرة..

أُعْطيتْ لكلٍّ منّا زجاجة.. وسرْنا خلف المديرة التي توجّهتْ بنا في سردابٍ طويل..

دخلنا خلفَها إلى قاعة كبيرة..

وقالت: «ألتمسُ من السيّد الزعيم ومن قائد مَرْكَبَة الأرض أن يتفضّلا إلى المنصّة!»..

جلسْنا جنبًا إلى جنْب..

وأخذَت الكلمةَ مُديرةُ المصنع: «مَرحبًا بضيُوف الأرض، وبزعيمنا الكبير.. يُسعدني أن ألتمس من كل واحد منكم، حضرات السادة، أن يشربَ قارُورتَه.. إن فيها ماءًا كاملَ العناصر الشّرُوبة.. وهذا الماء، يُكمّلُ الشّكولاتة الغذائية التي تناولتُمُوها في الصباح.. فالشكولاتة تُزوّدُ آكلَها بطاقة شهر كامل حسب التوقيت الأرضي، بينما القارورةُ

تُزوّدُ شاربَها بحاجته إلى "الماء الكامل" لمدة نفس الشهر.. ويُمكنُكم أن تطرحُوا ما شئتُم من الأسئلة، وألتمسُ من زعيمنا أن يتفضّل بالجواب عنها».

رفعتْ سيّدةٌ من مُسافري الأرض أُصْبُعَها، فسألت: «الماءُ الذي نشربُه على الأرض يتكونُ من عنصُرَيْن: الأوكسيجين والهيدرُوجين.. فهل مشروبُ القارورة يتكوّنُ من ذات العُنْصُرَيْن؟»..

أخذ الزعيمُ الكلمة: «فيها عدةُ عناصر منها العُنصُران اللذان تفضّلتِ بذكْرهما.. ولكن التركيبة المادية لمشروبنا لا ننظُرُ إليها من الزاوية التّقنية المحضة.. هناك الزاوية النّفسانية لكلّ شارب.. فالتّأقْلُمُ مع الماء "النبتُوني" لا يتمُّ إلاّ بعامليْن أساسييْن: أوّلُهما أن يقتنع المرءُ بأنّ ماء الأرض ليس ماءَ "نبتُون"، وأنّ إنسانَ الأرض لن يكون إنسانَ "نبتُون"، إلا إذا وُلدَ في "نبتُون" وفتحَ عينيْه على ظروف حياتنا وأصبحَ واحداً منّا.. ففي "نبتُون" يتعرّضُ الإنسانُ لتغييرات جسمانية ونفسانية وعقلية، الأمرُ الذي يجعلُه مع مرور الزمن مُختلفاً عن إنسان الأرض.. إنّنا نحنُ سكانُ "نبتُون" نختلفُ عنكم.. فأنا ـ مثلاً ـ أبدُو بالنسبة إليكم في سنّ الطفولة.. بينما الحقيقة أنّني تجاوزتُ المائتيْ سنة، حسب الضّبط الزمني لكوكب الأرض.. وهذا الاختلاف البيُولوجي، وبالتالي النفسي والعقلي والعصبي بينكم وبيننا، راجعٌ إلى الأغذية التي يتناولُها كلُّ طرف منّا، وراجعٌ أيضا إلى طقس كلّ فئة.. وهذا الواقع يجبُ أن نقبلهُ إذا شئنا فعلاً أن نعيش

ونُفكّر.. ولذلك، ابتكرْنا أدوات، واكتشفْنا موادَ من شأنها أن تجعلنا مُؤهّلين لمسيرة الحياة في كوكبٍ قاسي الطقس، ويختلف عن الأرض من حيثُ حجمُ وتتابعُ فصول السّنة.. ولذلك، وفي خضم واقعنا الصعب، فإن ماءَنا يتضمنُ موادَ أخرى إلى جانب عنصُريْ الماء الأرضي.. ونحنُ في الواقع لم نأت بشيءٍ من عندنا.. فالحياةُ هي مالكةُ كلّ شيء.. الحياةُ حبلَى بالغازات والعناصر القابلة للاستغلال من أجل حياة أفضل.. وأُعطي الكلمة للسيدة المديرة لتكشف لكم عن اكتشاف جديد.. فلتتفضّلْ مشكورة!»..

وأخذت المديرةُ الميكروفون: «حضرات السيدات والسادة.. إن القوارير التي بأيديكم هي في حدّ ذاتها عناصر كونية تتفاعلُ مع الغازات المنتشرة في بيئتنا، وينتجُ عن تفاعُلاتها سائلٌ هو الماءُ الشروب الموجود في القارورة.. وإنّنا قد طوّرنا آلياتِ إنتاج هذا الماء، فأصبحتْ كلُّ وسائل النقل، وكلُّ الإدارات، وكلّ البيُوت، قادرة على تزويد أصحابها بالماء الشروب.. وستجدُون تحت نوافذ كل البنايات التي ستزُورُونها في "واحة المخادعين"، صناديقَ مُثبتةً في الجُدران.. إنها آلاتٌ تمتصُّ الغازات من خارج البناية، وتُحوّلُها في تركيبة علمية مدروسة، بعد أن تُضاف إليها موادّ مُعيّنة، إلى ماء صالحٍ للشرب»..

انتهى تدخُّلُ المديرة..

وسأل أحدُ المسافرين: «عقلُنا لا يُصدّقُ أن تستطيع قارورةٌ صغيرة منحَ الإنسان كفايتهُ من الماء طيلة شهر كامل.. فهل السرُّ كلُّ السرّ

في ما تمَّ ذكْرُه؟ أم هناك سرٌّ آخر؟»..

أجابت المديرة: «لقد أخذنا ونأخُذُ في الاعتبار أن الإنسان نفسَهُ يُنتجُ الماء.. فجسمُ الإنسان يتكوَّنُ ثُلُثاهُ من ماء.. وإنّ منتُوجَنا، أي الشكولاتة والقارورة، يُمَكّنُ الجسمَ من الحفاظ على نسبة عالية من الماء الموجود فيه.. وعندما نُحافظ على ماء الجسم، من خلال إعادة تكريره وتصفيته وتنشيطه، بفضل كبسُولات صناعية دقيقة، وموادَّ من مُبتكراتنا الصيدلية، فإن ما سيحتاجُهُ هذا الجسمُ من ماء إضافي سيكونُ نسبة قليلة.. وهذه النسبةُ القليلةُ إذا كانت غنيّةً بالموادّ المنشّطة للجسم، فإنّ الإنسان يستطيعُ أن يعيش عيشة طبيعية.. وهذا ما وقع ويقعُ في "نبتُون"، حيثُ الحياةُ تطوّرَت وسوف تتطوّر.. لماذا؟ لأنّ الكائن الحيّ قد تأقْلَمَ مع هذه الاكتشافات»..

وتقدم طفلٌ من رفاقنا في رحلة الأرض، فطرح السؤال التالي: «سمعْنا منكَ يا سيادة الزعيم أن عُمرك يبلغُ مائتيْ سنة.. فهل الماءُ هو السرّ؟»..

ردَّ الزعيم: «هناك عدةُ أسرار منها الماءُ الشروب.. فهذا الماءُ ليس فقط موادَّ قابلة للشُّرب الطبيعي، بل فيه أيضا أدوية للمعالجة من جُلّ الأمراض التي يمكنُ أن يتعرّض لها الكائنُ الحيُّ عندنا.. وفيه كذلك موادّ لإطالة الشباب من خلال مُعالجة الأسباب التي تدفعُ بالخلايا الحيّة إلى الشّيخُوخة.. وفيه أيضا عناصر تجعلُ العقل أكثرَ نُضجًا، والخيال أكثر نشاطًا، والنفسية أكثر انفتاحًا وإقبالاً على الحياة»..

وختمت المديرةُ الملتقى بأن أعلنت أن هذا مُجرّدُ إخبار: «فأنتم على كل حال لن تحتاجُوا بعد اليوم لا إلى قارورة أخرى، ولا إلى شكولاتة أخرى، لأنكم أصبحتُم منذ اليوم حاصلين على كفايتكم من الغذاء والشراب، للمدة المتبقية لكم في "نبتُون"، وهي شهرُ الضيافة! وشكرًا لكم!»..

وغادَرْنا مَصنعَ الماء..

□ ذهبُوا بنا إلى المسرح..

ورحّبَتْ بنا مُضيفةٌ روبوتيةٌ تتكلّمُ كلَّ لُغاتِ كوكبِ الأرض: «تفضّلُوا معي إلى قاعةِ الفُرجة!»..

وعندما رُفع السّتار، بدأتْ حيواناتٌ تُجسّدُ أدوارًا آدميةً في مسرحية بعُنوان: "البهلوان"!

أحسسْتُ بالتّقزُّز من هذه المسرحية التي أُعِدّتْ كي تُعالجَ مسألةَ "الديمقراطية الحيوانية"، بينما هي تهزأُ من ديمقراطيتنا الآدمية!

المسرحيةُ تستفزُّنا!

تستفزُّنا استفْزازًا!

فهل الحيوانُ "النبتُوني" أقدرُ منّا نحنُ الأرضيين على تنظيف بيُوتنا؟ لو عُرضت مثلُ هذه المسرحية في كوكب الأرض، وعلى بني آدم، لقبلُوها كما قبلُوا إبداعاتٍ منها «كليلة ودمنة» وغيرُها... ولكنهم يعرضُونها علينا، ونحنُ ضُيُوفٌ عندهم!

إنّهم يُحرّكُون فينا الجراح الأرضية التي لم تندمل بعد..

ويُذكّرُوننا بواقعنا الرّدئ.. ويُحْيُون فينا ما نَكْرَه.. فما جئنا لكي نُشاهد على مسرح "نبتُوني" ما نُعانيه في الأرض!

إنّ مسؤولي "واحة المخادعين" لم يحترمُوا آدابَ مُعاملة الضيوف..

هم الآن يستعرضُون علينا عضلاتهم، ويهزأون من ديمقراطيتنا..

فقصةُ "البهلوان" لا تنطبقُ إلا علينا، نحنُ وحْدَنا في طول السّماوات وعرضها..

فلماذا يتعمّدون عرضَها علينا؟

وهل نحنُ بحاجة إلى من يُرينا وُجوهَنا في مرآة التّعفُّن؟

أنا غيرُ مُرتاح لهذه المسرحية.. فما حاجتُنا إلى "ديمُقراطية الحيوانات"؟!

كتمتُ غيظي وطلبتُ مُقابلةً خاصّة مع الزعيم..

قلتُ له: «أريدُ أن أتفقّد المركبة.. فعليّ أن أتّصل بمحطتي الأرضية!»..

أجاب: «هذا من حقّك الطبيعي.. فتعالَ معي.. أنا أيضًا سيُسعدُني أن أزُورَ مركبةَ الأرض، طبعًا إذا سمحتَ لي بذلك»..

ـ يا أهلاً وسهلاً.. ولكن اسمحْ لي بطلب مُوافقة الأرض!..

أخذَني في سيارته الضوئية إلى مطار المحطة.. هناك تجثُمُ المركبة في شكل طائرة..

انتظر الزعيمُ في سيّارته، ودخلتُ إلى المركبة.. وجدتُ رسالة

صوتيةً مُطوّلةً من "سُونا" .. لم يُسعفني الوقتُ لسماعها .. فلا مجال لإبقاء الزعيم في الانتظار ..

حوّلتُ الرسالة من صوْت إلى كلامٍ مكتوب ..

ودفعتُها إلى طابعة الورق، ووضعتُ الورقة في جيبي، ثم اتّصلتُ بكوكب الأرض ..

حكيتُ بإيجاز ما حصل، وقلتُ إنّنا لم نصل إلى "نبتُون"، كما كان مُقرّرًا لنا .. نحنُ الآن في "واحة المخادعين" بانتظار إرجاعنا إلى الأرض بعد حوالي شهر من الضيافة .. وأخبرتُ قيادتي أن "نبتُون" قد قرّرتْ قطع العلاقات مع "الأرض"، وأن مسؤولي "واحة المخادعين" يُحسنُون مُعاملتَنا، وأنهم قسّمُونا إلى مجموعاتٍ للإطلاع على التطوُّر الحاصل في هذه "الواحة" ..

صعد الزعيمُ سلاليم المركبة ..

ورحّبتُ به : «تفضّلْ يا سيادة الزعيم ! باسم "الأرض" أُرحّبُ بك على متن المركبة» ..

المركبة تستفيدُ من القوانين الكونية التي تمنحُها سُلطةً مُستقلّة، حتى وهي في مكان آخر غير الأرض .. وفي حالها الراهن، تُعتبرُ بمثابة قُنصليةٍ أرضية، ذات تمثيلية دبلوماسية، حتى ولو كان هناك غياب هيأة دبلوماسية أرضية في "واحة المخادعين" ..

أطلعتُ الزعيم على مقصورة القيادة .. وكلّ مرافق المركبة .. وعلى مؤونتنا الخاصة بالرحلة .. وعلى مئات الأطنان من المواد الغذائية التي

جئنا بها إلى كوكب "نبتُون" ..

وتحدثتُ معه بتفصيل عن الهدف من هذه الرّحلة.. قلتُ: «إن الهدف هو مقايضة موادّنا الغذائية هذه، بمعادن من "نبتُون"»..

وقد تفهّم الموقف.. وتأسّف لمنْعنا من مواصلة الرحلة إلى العاصمة "النبتُونية"..

شرحتُ له ما حدّثْتنا به دوريةُ الجمارك من أنه قد صدر قرارٌ يقطعُ العلاقات مع الأرض..

أخْبرتُهُ أن "الأرض" منحتْني صلاحية التحدث إليه وإلى مسؤولي "دولة نبتُون".. وقلتُ: «علينا أن نتفاهم لتسوية كل الخلافات، فنحنُ وأنتم أبناءُ أسرة شمسية واحدة، ومن شجرة الحياة، وإنّ ما يجمعُنا هو أكثر ممّا يُفرّقُنا»..

وطلبتُ منه أن يفعل شيئًا من أجل تدارُك الموقف.. فنحنُ لا غنى لنا عن "نبتُون"، و"نبتُون" لا غنى لها عن "كوكب الأرض"..

وسألني الزّعيم: «حدّثْني بصراحة، لماذا مسؤولوكُم لا يلتزمون بالعهود، ولا يفُون بالوعود؟»..

قلتُ: «يا زعيم.. نحنُ وأنتُم من سلالة واحدة.. أحيانًا نُصيبُ في تعامُلاتنا، وأخرى نُخطئ.. فالخطأُ والصوابُ يسيران جنبًا إلى جنب في سلُوكاتنا.. إنهُما قدَرُنا المحتوم.. إلا أنكم إذا قدَرتُم أنّنا على استعداد لتصحيح أيّ خطأ، لأنّنا إذا أخطأنا فبحُسن نيّة، فإنّنا نحنُ أيضا سنتعاملُ معكم على أساس أنكم قد تُخطئون، ونحنُ

أصلاً لا نتعاملُ معكم وكأنكم معصُومون من الخطأ.. أتمنّى أن نتدارك الموقف، فنُصحّح ما يتطلبُ التصحيح، وألا نُعقّدَ الموقف!»..

تفهّم الزعيمُ هذا المنطق..

وحاول أن يُغيّر الموضوع لإضفاء نُكهة مزاحية على مجرى الحديث، فدعاني إلى التعرُّف على سيّدةٍ ما زال يُحبُّها..

ضحكتُ ضحكةً عميقةً وقلتُ: «يا لهَفي على هذا الحُبّ.. هو الآخرُ لا يُفارقُنا.. فتَصوّرْ يا سيدي الزعيم أنّني أنا أيضا وقعتُ في أحابيله!»..

ـ صحيح؟

ـ نعم يا زعيم.. ولكن ما أن صرتُ مُنشغلاً بها، حتى غابتْ!»..

ـ صحيح؟

ـ نعم يا زعيم.. لقد اختَفَتْ.. إنها "سُونا".. تلك التي حدّثْتَني عن أنها ذهبتْ إلى "العاصمة"!

ـ ياه؟! أبهذه البساطة أنتُم معشرَ الأرضيين تُحبُّون؟ وبهذه البساطة تتحسّرُون؟!

ـ أجل يا زعيم.. فخبّرْني: أينَ محبُوبتُك.. من تكُون؟!

لم يُجبْني الزعيم.. دعاني لمُرافقته إلى نفس المصنع المائي الذي زُرناهُ في وقت سابق..

ركبْنا سيارتهُ الضوئية..

وبعد لحظات كُنّا في المصنع..

□ استقبلتْنا نفسُ المديرة: "صباح نبتُوني"!..

هي الأخرى في قامة الزعيم.. كأنّني أراها لأول مرة.. صبيّة جميلة ترتدي فُستانًا ورديًّا..

قال الزعيمُ مُبتسمًا: «هذه يا قائد.. هذه مُعذّبتي!»..

تورّدتْ وجنتا الصبيّة "النبتُونية"، وردّت: «إنهُ لا يزورُنا إلا نادرًا.. هو دائمًا مشغُولٌ عنّا.. هو زوجي.. تزوّجتُه منذ قرن من الزمن، حسبَ التوقيت الأرضي.. وأنا الآن في حوالي المائتيْن.. هو دائمًا مشغُول.. فما العمل؟ ما فتْواكَ أيها الأرضي؟»..

نظرتُ في الصبيّة المُتورّدَة.. وأدركتُ أنني في حضرة العشق..

وقلتُ لها: «كان اللهُ في عون العاشقين!»..

وسألتْني: «أنتُم تقولون هكذا؟»..

ـ نعم يا سيدتي..

ـ وإذن تتعاطفُون مع العُشّاق؟

ـ أجل يا سيدتي.. ونُحبُّهُم!

ـ وأيضا تعرفُون الله؟

ـ نعم يا سيدتي..

ـ وأين هو؟

أشرتُ إلى قلبي: «إنه هُنا!»..

سكتت المرأة.. ووجّهتْ نظراتِ عتابٍ عميقةً إلى زوجها

الزعيم..

والتفتتْ يميناً وشمالاً.. ثم قالت: «أنا محظوظةٌ هذا اليوم.. فلأول مرة ألتقي فيها بزوْجي مرتيْن في يوم واحد.. فكثيراً ما مضَتْ سنواتٌ دون أن أراه.. وما دامت الفُرصةُ مواتية هذا اليوم السعيد، فأقترحُ عليكما زيارة جناح الإنتاج في مصنع الماء»..

ابتسم الزعيمُ ورافقْناها إلى الجناح.. هو مصنعٌ كبيرٌ جدّا.. فيه المئاتُ من العُمّال الآليين.. إنهم الرّوبُوتُ مُنشغلُون بخياطة ألبسة..

ـ وما العلاقةُ بين الماء والألبسة؟

أجابت زوجةُ الزعيم: «هي علاقةٌ متينة.. إنّنا هُنا نُنتجُ ألبسةً لا تبلَى.. يمكنُ للمرء أن يرتديها طول حياته.. وهي تُغيّرُ حَجْمَها بطريقةٍ تلقائية، لتنسجم مع عُمر لابسها.. وفي هذه الألبسة أجهزةٌ مُتنوّعة، بعضُها طبّي مثل آلة قياس الضغط ونبضات القلب وغيرها، وبعضُها للإرشاد والتّوجيه، حتى إذا تاه المرءُ في فيافٍ وقفار، أطلقَ اللباسُ إشارات تُحدّدُ مكانهُ بالضبط، وحالته الصحية، ووضعه الفكري والنفسي والعصبي.. بل تبثُّ حتى آلامَه وأحاديثه إلى نفسه، في شكل تخيّلات وأفكار مُنسّقَة، أو أحاديث منطوقة إلى غيره من الكائنات! وإذا ما أحسّ اللباسُ أن الشخص لا يُبدي أية حركة، فإنه يتحوّلُ إلى ميكروفون يمكن لهذا الشخص أن يستغيث به كلامًا أو صرخةً إذا كان قادراً على ذلك.. أما إذا لم يستغثْ، فإن اللباس يقومُ بذلك نيابةً عنه، فيبُثُّ تصفيراً على موجاتٍ إذاعية

معروفٌ أنها خاصّةٌ بطلب النّجدة»..

ـ وما علاقةُ هذه الألبسة بالماء؟

أجابت: «في هذا المصنع نعتبرُ العلاقةَ بينهما متينة.. فالماءُ لا يبقى في الجسم، بل يخرجُ من الجسد في شكل عرَقٍ وغيرِه.. اللباسُ يمتصُّ العرق ويُحوّلُه إلى غُبارٍ يتخلّصُ منه المرءُ بلمْسةٍ من يديْه، أي دون اضطرارٍ إلى الاغتسال.. الوسخُ الجسْماني يتحوّلُ في هذا اللباس إلى غُبارٍ يتبدّدُ بسهُولة، ودون أية حاجة لا إلى صابون، مثلما هو الشأنُ عندكم، ولا ماء.. ومع ذلك، فإن الجسم لا ينشطُ بدون إفرازاتٍ ذاتيةٍ أخرى.. ولكن هذه الإفرازات مدروسةٌ بعناية في مُختبراتنا.. فالجسمُ لا يتخلصُ إلا من نسبة ضئيلة من سوائله، وذلك للضرورة القُصوى.. بينما بقيةُ السوائل يتمُّ تكريرُها ومُعالجتُها داخل الجسم، وبالتالي يُعادُ استخدامُها من قبل نفس الجسم»..

لاحظ الزعيمُ أنني فاغرٌ فايَ لما أسمع، فتدخّلَ قائلا: «أشكُرُ زوجتي الغالية على هذه التّوضيحات، وأضيفُ أن تدخُّل علُومنا في الدورة الطبيعية للماء، عبر أجسامنا، جعلَنا نحن سكان "نبتُون" أقلَّ عُرضةً للأمراض، وأكثر قُدرةً على مُكافحة الشّيخُوخة، وبالتالي أكثر استغلالاً للغازات والمعادن التي تحبلُ بها فضاءاتُ الكون الشاسع الرّحب»..

أذهلَني ما سمعتُ..

فهؤلاء القومُ صغارُ البنية، لكنهم أكثرُ قُدرةً على استغلال موارد

الطبيعة، وأكثرُ تنظيمًا لشؤونهم..

قلتُ: «يا سيدتي.. هلاّ سمَحتِ لي بربط ما سمعتُ بما لم أسمع؟»..

ـ وماذا تريدُ أن تسمع؟

ـ توضيحًا عن حياتكُما الزّوجية.. فهل لديكما أطفال؟

ضحكت المرأةُ: «لعلّك تتحاشى طرح السؤال الآخر: "كيف تعيشان الحياةَ الزوجية؟" .. إنّنا ببساطة، نندفعُ إلى بعضنا، عندما نشتاقُ إلى بعضنا.. وفي الوقت الآخر، نُمارسُ الحياة الزوجية بالمراسلة.. أما عن الأطفال، فنحنُ لا نختلفُ عن غالبية سكان هذا الكوكب.. عندنا ابنٌ واحد.. احتَفلْنا مُؤخّرًا بعيد ميلاده التّسعين.. فهل تُريدُ أن تعرف شيئا عنْ عمله؟»..

ـ أجل يا سيدتي..

ـ إنه يجمعُ النفايات في شوارع مدينتنا..

ـ يجمعُ النفايات؟

ابتسمت المرأةُ: «نعم.. وإن راتبهُ يفوق راتبي مرّتيْن.. وفي هذا يكمنُ الفرقُ بينكم وبيننا.. فأنتم لا تعْبأون بمن يُنظفُون أحياءَكم وشوارعَكم، بينما نحنُ نعتبرُ هذا أشرفَ مهنة.. فمُنظفُ الشوارع تُعطاهُ الأسبقيةُ في كلّ شيء.. هو أكثرُ من أيّ منّا حُظوةً بالاحترام»..

تاوّهتُ من الأعماق: «أنت مُحقّةٌ يا سيدتي.. فما أحوجنا إلى التّعلُّم منكم كُلّ هذا التّقدير!»..

وتدخّلَ الزعيم: «هذا التّقديرُ يدخلُ في خانة تنظيم النّسل عندنا.. ولا تستغربْ! فنحنُ لا نُنجبُ الأطفال من صُلبنا إلا لإثبات استمرارية وجُودنا، ولكي نسعد برؤية أنفُسنا في أبنائنا وبناتنا.. وعندما نُنجبُ طفلا، فإنه لا يكونُ طفلَنا إلا من باب العاطفة الوالدية.. أقصدُ بهذا عاطفة الوالدَيْن معًا.. بينما هو في نظر الدولة والمجتمع ابنُ الجميع.. هو ابنُ "نبتُون".. ابنُ المجموعة الشمسية.. ابنُ الكون.. ابنُ الحياة.. وفي هذه الرؤية الشمولية يتساوى الأطفالُ عندنا.. لا فرقَ بين هذا وذاك.. الكلُّ سواسيةٌ أمام الكلّ.. وهذا هو الفرقُ بينكم وبيننا.. فأنتم لم تتخلّصُوا بعدُ من النظرة التملُّكية لأبناء الحياة»..

ـ ولكن يا زعيم، ألا ترى أنّ التّملُّك نابعٌ من الحُبّ.. ألم نسمعْ من زوجتك، السيّدة المديرة، ملاحظةً أنها لم تَرَكَ من زمان؟ إن هذه الملاحظة تختزنُ حنينًا تملُّكيًا إليك.. أليس كذلك؟»..

لم يُجبِ الزعيم..

ونظرت المرأةُ إليه، وكأنها تقول له: «أفْحَمَكَ الأرضيُّ يا زعيم!»..

بيْدَ أن الزعيم لم يستسلم.. قال: «الحُبُّ ليس تملُّكًا.. هو شوقٌ وحنين إلى المحبُوب»..

ابتسمت المرأة.. ونظرت إليه مُستسلمة.. ثم فتحتْ ذراعيْها.. وجذبتْهُ إليها.. وقبّلتهُ أمام الجميع..

رفع العُمّالُ الآليون رُؤوسَهُم مشدُوهين لرؤية هذه المرأة الجادّة وهي تتحوّلُ إلى صبيّة أمام هذا الزعيم..

وعلّق الزعيمُ ضاحكًا: «الخوفُ كلُّ الخوف أن يتوقّف هؤلاء عن عملهم، فينْقَضّ بعضُهم على بعض، اعتقادًا منهم أن عليهم حتى في هذا المشهد أن يُقلّدُوا المديرة!»..

واعترفَت المديرةُ أن هؤلاء لا يتورّعُون عن تقليد الآدميين: «ولذلك، ننصحُ البشر بعدم القيام بسُلوكاتٍ من شأنها أن تُغريهم بالتّقليد»..

وبينما هي على هذا التّوضيح، فَعَلَها أحدُ الرّوبوت.. انقضّ على روبُوتة، وصار يُقبّلُها ويستفزّ بذلك بقية الرُّوبُوت العاملين الذين تصاعدت منهم قهقهاتٌ مُقْرِفَة..

قالت المديرة: «هُم في سنّ المراهقة.. وسنُحضّرُ برامجَ خاصة لتعديل سُلوكهم.. فهم يعتبرون التّقبيلَ سلوكًا مُضحكًا.. وإذا تركناهم على انفعالاتهم التي نراها، فإنّ أخلاقهم ستؤولُ إلى الفساد.. فعلينا بالتّدخّلِ فوراً لإنقاذ نفسية هؤلاء المعدنيين، قبل أن ينحرفُوا»..

ودَعَتْني المديرة..

وهمستْ لزوجها بكلام..

وضحكَا..

وتعانَقَا..

ثم انصرفْنا..

□ وفي الليل فتحتُ رسالةَ "سُونا"..

هي غمزاتٌ من أُنثى إلى أُنثى، أو هكذا فهمتُ..

فلماذا وجّهَتْ "سُونا" إليّ أنا بالذّات، خطابًا هو مكتُوبٌ أصلاً لدَغْدَغَةِ مشاعرِ أنثى؟ إذا كان لذلك من تأويل، فهو التّمويه.. فهل هُناك من يدفعُها إلى التّمويه؟ هل هناك من يُراقبُها؟ وفي هذه الحالة، ما عليَّ إلاّ أن أغيّر الصيغة الأنثوية.. إذا استبدلْتُ حروفَ التّأنيث، سأجدُ أن الرسالة خطابٌ إليّ، لا إلى غيري..

حرّكتْ فيّ عاصفةً من الاستفهامات: هل في الرسالة خطابٌ مُشَفَّر؟ ولماذا لم تتحدَّثْ عن نفْسها؟ أين هي؟ وكيف غادرتْ "واحة المخادعين"؟ هل خرجت بمحض إرادتها؟ أم أخرجُوها؟ ولماذا؟ وهل هي بخير؟ أم هي مُختَطَفَة؟ وما المطلوبُ منّي؟ لستُ أدري.. والزعيمُ يقولُ إنها في رحلة إلى "العاصمة"، فهل هذا صحيح؟ ولماذا؟

إنّني أشتَمُّ في الرسالة لُغزًا..

فهي تتحدثُ عن مُشكلة: «"المشكلةُ" تُخطط وتحْفرُ وتُحرّك، والإنسانُ يُنفّذ!»..

ما هذه المشكلة؟

ماذا تُخْفي الرسالة؟

"سُونا" أعرفُها جيّدًا..

إن ما كتبتْهُ ليس منْطقها على الإطلاق.. هي لا يُمكن أن تُلغي

مسؤوليةَ الإنسان في مُواجهة أية "مُشكلة".. وحتى إذا كانت المشكلةُ مفرُوضة، فإن الإنسان يُواجهُها، ولا يستسلمُ لها!

ألغازٌ في هذه الرسالة..

ولا بُدّ لي أن أُخبر القيادة الأرضية غداً، وهذه المرة بالطّريقة المشفّرة، لا بالأسلوب اللُّغوي المعتاد.. فهل هناك نوايا مُبيّتة ضدّنا من قبل "النبتُونيين"؟

ـ لستُ أدري!

ومهما يكُن، فمن باب كسْبِ الوقت، وإبداء حُسْن النوايا أمامَ من قد تقع الرسالةُ في أيديهم، سأرُدُّ على "سُونا" برسالة عشق.. لحدّ اللحظة، لا أعرفُ ما سأكتُب.. وليس المهمُّ ما سأكتُب.. المهمُّ أن أكتُب مشاعر.. ثم ألُفُّها في أيّ كلام.. ولتكُن المشاعرُ مرمُوزةً في مرآة.. ومن خلالها سوف أعلنُ أنني أعترف.. أعترفُ بماذا؟ لحدّ الآنَ لا أدري.. ولكن هي ستقرأُ ما يهُمُّها.. المرأةُ لا تنطلي عليها الكلماتُ الدّالّة..

وهي تُدركُ جيّداً مدلُولَ المرآة..

وما يقصدُ من يصفُها بمرآة!

رسالةُ الحبّ هذه ستكونُ في حدّ ذاتها طاقةً لها، وستكونُ طبيعيةً ما دام زعيمُ "واحة المخادعين" على علمٍ بأنني مُنْجَذبٌ إلى "سُونا"..

أخذتُ القلم والورق..

ما زلنا نكتُبُ باليد..

كتابةُ اليَد لم تَندثرْ رغم كل الوسائل التَعْبيرية الجديدة..

□ وقّعتُ الرسالة..

وأطلقتُها إلى "سُونا"..

أوْدَعتُها البريدَ الإلكتروني، في عُنوانها الكوني، ثم أطللتُ من النّافذة..

كان "نبتُون" كوكبًا كالبدْر عندنا في ليلة كمال القَمر.. إنّنا على محطة صغيرة من آلاف المحطات السابحة حول "نبتُون".. وهُنالك، في مكان ما من هذا الكون الشّاسع، تُوجدُ "سُونا".. فأين أنتِ يا رفيقة؟

كانت السماءُ تتلألأُ وتُذكّرُني بمدينتي على الأرض.. ويا لَروْعةَ مدينتي في لياليها!

ضغطتُ على المفتاح ضغطةً واحدة..

وظهرَت الرُّوبُوتةُ الساهرة على خدمتي في الشُّقة.. سألتُها: «أين رفيقُك؟»..

ابتسمَتْ: «إنه نائم!»..

ـ وهل الرُّوبُوتُ ينام؟

ـ نعم يا سيدي.. الرُّوبُوتُ في عالمنا ينام.. هو يُقلّدُ الإنسان.. إذا نام الإنسانُ في وقت مُعيّن، فإن الرُّوبُوت يتعوّدُ النَوم في نفس الوقت..

ـ وهل أنا نائم؟

ـ كُنتَ أمسِ في مثل هذا الوقت نائمًا.. وهذا علَمُهُ أن وقتَ نومكَ هو هذه الساعة..

قلتُ في نفسي: «إن شيئًا غير طبيعي في برمجيات هذا الرّوبوت»..

وسألتُ الرُّوبُوتة: «ولماذا ما زلتِ أنتِ يَقْظانة؟»..

قالت: «يا سيدي، لن أنام حتى أقيس ضغطَك الوجداني!»..

أضحَكتْني هذه الرُّوبُوتة..

أعادت إليّ الضحك.. إن من الرُّوبُوت ما يُضحك!

اتّخذَتْني مُحورًا وبدأت تلتفُّ حولي.. دارتْ ودارتْ ثم دارتْ.. وتوقّفتْ: «شُكرًا لك يا سيّدي.. ضغطُكَ الوجداني عادَ تمامًا.. ولكنك مشغولُ البال.. فقلبُكَ ينبُضُ بقُوّة فيها حنين.. هذا خفقانُ العاشقين.. وعليك أن تعترف.. فماذا يشغلُ بالك؟»..

تأمّلتُها وكأنّها من لحم ودم..

كأنها امرأةٌ تتكلّم.. هذه معدنيةٌ تتكلّم عن «خفقان العاشقين»..

ابتسمتُ وقلتُ: «وهل تعرفين في الخَفَقان؟»..

قالت: «حتى أنا أعشق!»..

ضربتُ كفًّا بكفّ: «الحديدُ يعشق؟ تعشقين ماذا؟»..

دارتْ حول نفسها وكأنها أنثى تلُفُّ بجسدها، وقالت: «ابتُليتُ بذلك النّاتم!»..

وسألتُها: «برَبّك خبّريني.. كيف يمكن حتى للمعادن أن تنجذب

إلى بعضها، وتعشقَ بعضَها، وتحنَّ إلى بعضها؟»..

فتحَتْ عينيْها عن آخرهما، وهي لم تتوقّعْ منّي هذا السؤال..

وبعد لحظة تأمُّل، أجابت: «الحُبُّ محورُ كلّ شيء في الوجود، من الجماد إلى الحيوان فكُلُّ الكائنات العاقلة والمعبّرة عن انصهارات الحياة.. وهذا الواقع موجودٌ في المعادن كما في الإنسان.. العصرُ الحديث يُعلّمُنا أن نكتشف هذا التيار التّواصُلي حتى بين الإنسان والصخْر.. ومن هذا المنظور، فإن كلّ شيء يتخاطب.. والكونُ في مجموعه عبارة عن أشياء تتواصل.. وأنا هنا أتواصلُ معك، وأنتَ تتواصلُ معي!»..

كدْتُ أُصابُ بالخجل..

وشكرتُها على هذا الرأي..

وطلبتُ منها أن تُخْبر معشوقَها النائم، بأن يكون في انتظاري عندما أستيقظ..

ثم حيّيْتُها: «ليلة "نبتُونية" سعيدة!»..

وردّت برقّة: «ليلة "نبتُونية" أسْعَد!»..

ورُحتُ في نومٍ ما هو بنوم..

وجدتُني سابحًا في عالم غريبٍ من "أبطاله" نفْسُ الرُّوبُوت الذي أخذ قلبَ الرُّوبُوتة.. إن الأحلامَ تجعلُنا نكتشفُ جوانبَ خفيّةً من حياتنا اليومية، ومن تصوُّراتنا.. وأحيانًا تحملُ إجابات عن كثير من استفهاماتنا الظاهرة والخفيّة..

وفي الصباح الباكر أيْقظَتْني المخدّةُ اليُمنَى في الشُّقّة..

قالت: «هذا حُلمُك فاسْمعْهُ يا "لُقْمَان"!»..

كانت اليُمنَى قد سجّلت الحُلمَ.. فدورُها هو أن تُراقبَ ليلةَ النّائم.. هكذا هي مصنُوعة.. وهكذا يُريدُ لها "النظامُ الليلي الجديد" في عالم "نبتُون"..

كانت في حالة قلق.. فقد عيّرَتْها المخدّةُ اليُسْرَى، بأنْ وصَفتْها بجاسوسة الأحلام..

وسألتُ الغاضبة: «لا شكّ تَفوّهْتِ بكلامٍ أثارَها.. فماذا قالت لك؟ وماذا قُلتِ لها؟»..

أجابتْني: «قالتْ إنّني كالصّخْر، بلا حياة.. وهي بذلك مُغالطَة.. وقد قلتُ لها إنني يقِظة، حريصة، مُراقِبة.. فهل في هذا عيْبٌ يا "لُقْمَان"؟»..

ـ لا عيْبَ في هذا!

انْفَعَلَت المخدّةُ اليُسْرَى لهذا الرّدّ، وقفزَتْ من مكانها: «أنتَ يا "لُقْمَان" تُحرّضُها عليّ!»..

ـ لا.. لا.. فأنتِ أيضًا مثْلَها مُحترَمة.. أنتِ يا يُسْرَى تُذكّرينني بالزمن الجميل، عندما كانت المخدّاتُ ناطقةً في صمْتها، بليغةً في سكينتها»..

تأكّدتُ أن المخدّات كالنّساء، ذاتُ مشاعر رقيقة، شديدة الحساسية، وأنّ كلمةً لطيفةً واحدة تستطيعُ بها أن تُبدّدَ كل

السُّحُب..

ابتسمتُ للمخدّتيْن، وحاولتُ أن أكُون بينهُما المُصلح: «فيا عزيزتَيّ! لا واحدة منكُما أقلُّ درجةً من الأخرى.. فأنتُما تُكمّلان بعضَكُما.. ولا غنَى لي عنكُما!»..

ثم تَصالحَت المخدّتان..

وأصبحَ "لُقْمَان" يتَسَلْطنُ في الليل.. بين يُمنَى ويُسْرَى.. بين مخدّةٍ يقظانةٍ ومخدّةٍ تُشاركُهُ المنام!

وبعد المصالحة، قالت المخدّةُ اليقْظانة: «أنتم البشرُ تحلُمُون كثيرا.. لكم في الليل الواحد عدةُ أحلام.. وسأقدّمُ لك التّسجيلَ الصوتي لآخر أحلام ليلتك، فاسمعْهُ جيّدًا!»..

ثم أطلقَتْ شريطَ المنام..

والمخدّةُ اليُسْرَى ترى وتسمع، ولا تتكلم..

□ تبيّنَ أنهُ هو..

نفسُ الرّوبوت الذي ألهبَ مشاعر الأنثى المعدنية في شُقّتي..

هو من صانعي الحُلم!

ناديتُه: «تعالَ يا مُعذّبَ أنثاك! أين كُنتَ الليلةَ الماضية؟»..

سكت..

امتنع عن الإجابة..

أمرتُه أن يُرافقني في جولةٍ إلى حديقة "واحة الخادعين"..

ولدى خرُوجنا من الناطحة، التفتتُ إليه: «اعترفْ بالحقيقة.. أين
تَ الليلة الماضية؟ أعرفُ أنك كُنتَ في الغُرفة المجاورة لشُقتي،
ن ماذا كُنتَ تفعل؟»..

ابتسم ولم يتكلّم..

كان عليَّ أن أستفزّهُ لكي يتكلم: «أنا أعرفُ ما كُنتَ تفعل!»..

ـ تعرف؟ ماذا تعرف؟

ـ أبناء الشمس! ألم تكُن مع أبناء الشمس؟

انحنَى برأسه، ثم أجاب: «فعلاً.. كنتُ هناك، مع "عبلة"»..

ـ أعرفُ ذلك.. فقد شاهدتُك وأنت تُردّدُ مع الأسطوانة: «نحنُ
ءُ الشمس.. من صُلبها جئْنا.. إننا كالفراشات.. على النُّور
مات!»..

ـ يا سيدي.. هل كُنتَ أنتَ أيضًا هناك؟

أجبتُ: «نعم.. ألم تُشاهدني؟»..

قال: لا..

قلتُ: «أنا من كان يُغنّي للشّمس.. أنا "سليمان"»..

قطبَ الرُّوبُوت جبينَه: «بل أنتَ "لُقْمَان"!»..

ـ لا.. أنا "سليمان".. في المنام أنا "سليمان".. وفي الحياة العادية
·لُقْمَان"!

اختلطَت المفاهيمُ في دماغ الرُّوبوت.. فما كان يخطرُ بباله أن
يطيع التسلُّلَ إلى أحلام غيره، دون أن ينْكشف!

ـ هذه المرة انكشفَ أمرُك.. فلماذا تسلّلْتَ إلى أحلامي يا رُوبوت؟ كان بإمكانك أن تَطّلع على حُلمي كاملاً من المخدّة، وفي واضحة النّهار.. فالمخدّةُ تُسجلُ أحلامَ كلّ نائم عليها.. لكنك تجاوزتَ الحُدود، فجعلتَ من نفْسكَ لا مُتفرّجًا، بل مُشاركًا في حُلمي.. وهذا في حدّ ذاته تطاوُلٌ على حقُوقي.. فما السرُّ في هذا التطاوُل.. لماذا تُضايقُني في المنام؟»..

لم يعرف الرّوبوتُ كيف يُجيب..

وبصراحةٍ قال: «لستُ أدري.. هُم بَرْمَجُوني هكذا»..

ـ ومن هُم؟

ـ لستُ أدري..

ـ وكيف لا تدري؟

ـ لستُ أدري..

ـ ومن أنت؟

ـ لستُ أدري..

ـ ومن أنا؟

ـ لستُ أدري..

ـ وهل تُريدُ العودة إلى البيت؟

ـ لستُ أدري..

ـ يبدو أنك مُصابٌ بالخلل! هل تعي هذا؟

ـ لستُ أدري..

ـ هل تُريدُ منّي مُساعدة؟

ـ لستُ أدري..

ثم انطلق يُغنّي: «لستُ أدري.. أنا لستُ أدري.. لستُ أدري!»..

وبينما هو على هذه الحال، في الطريق إلى حديقة "واحة الخادعين"، توقّفتْ عندنا سيارةٌ وخرجَ منها شخصان.. لم يُمهلاني حتى أسأل، فقد انقضّا على الرّوبوت وحملاهُ في السيارة..

ضغطتُ على مفتاحي مرّتيْن..

وما هي إلاّ لحظات، حتى كان الزعيمُ بنفسه قد حضر..

اعتذرَ عما حصل.. وسألتُه: «وماذا حصل؟»..

أجاب: «فعلَها قليلُ الأدب.. وسوف نُؤدّبُه.. فقد حرّفَ برمجة.. ونقلَ دماغَهُ النهاري إلى الليل، وتحديداً من الواقع إلى المنام.. وفعلاً تطاولَ على حُرّيتك الشخصية، وسمحَ لنفْسه بمُمارسة الظُّور!»..

ابتسمتُ وقلتُ للزعيم: «يا سيدي.. لا داعي للقلق.. فتأكّدْ أنّني سعيدٌ بمشاركته في حُلمي.. هذا يحصُلُ لي لأول مرة.. فلأول مرة أكتشفُ غيري وقد تدخّل في حُلمي وأصبح مُشاركًا فيه، عن سبق إصرار.. وإنّ مشاركته كانت إيجابية.. وإذا اطّلعْتَ على تسجيل الفيلم، فإنك تجدُ هذا الرُّوبوت فعّالاً حيثُ يتساءل: «أين المفرُّ عندما تنتصرُ الشمس؟ وتفقدُ الأرضُ بحارَها.. وغلافَها الغازي.. تكتسحُها النّار؟»..

قال الزعيم: «أعرفُ أنّ الحُلم لم يكُن يدورُ حول "نبتُون"، بل حول الأرض من مَنظُورِها الشمسي.. وفي هذا إزعاجٌ لضيُوفنا الأرضيين.. فليس له أيُّ حقّ في التدخُّل في شؤون الآخرين.. هو مُبرمَجٌ لخدمتك خارج شُقّة الضيافة، وعليه ألا يتجاوز هذا الحدّ.. وسوف نتّخذُ معهُ الإجراءات اللاّزمة، خاصة وأنه لم يتجسّسْ عليك أنتَ وحدك، بل تجسّسَ على غيرك، في نفس الليلة، وأطلَّ من مَنامهم على حُلمك!»..

ـ وكيف يا زعيم؟

قال: «كثيرٌ من البشر هُنا رأوا في الليلة الماضية نفْس حُلمك.. فكان الرُّوبوت بمثابة المتفرّج الذي يشاهدُ قنوات تلفزية متعددة، كلُّها تُقدم فيلمًا سينمائيًا واحدا.. هذا بالضبط ما وقع.. فالرُّوبوت كان أمام عدة أشخاص، ولكنهم جميعا مُنغَمسُون في نفس الحُلم، وفي وقت واحد.. كلُّهم عاشوا مثلك نفس الوقائع، ونفسَ المعاناة، ونفس المشاعر، ونفس الخوف على أمّنا الشمس.. وقد التقطَ مُراقبُو الليل هذا الحُلم المشترك، وسجّلُوا أيضًا تجسُّسات الرّوبوت الذي لم يقتصر على الفُرجة، بل كان يتدخّلُ ويُوجّهُ هذا الحُلم.. يُحرّفُه عن مساره البشري الطبيعي.. وفي هذا تطاوُلٌ على حقوق أهل الليل، وتقصيرٌ في واجباته المهنية.. والمراقبون ينكبُّون حاليًا على مُعالجة ذلك الحُلم الموحّد لضبط القواسم المشتركة بينكم أنتم المساهمون في حبْكه بعُنوان شمسي.. وهذا الرّوبوت لم تُسند له مهمةُ المراقبة

الليلية، ولم يُرخَّص لهُ بالمساهمة في صناعة هذا الحُلم.. ولذلك يُعتبرُ خارجًا عن القانون!»..

ذكّرني كلامُ الزعيم بتقنيةٍ شائعةٍ عندنا، وهذه تتعلقُ بإمكانية اقتناء الأحلام، مثلما يتمُّ اقتناء الأقمصة والسّراويل.. فقد أصبحَتْ عندنا شركات تبيعُ الأحلامَ وفق الطلب.. وإذا كان مجموعةُ أشخاص يُريدون أن يروا نفس الحلم، في مكان وزمان مُحدّدَيْن، فما عليهم إلا شراء هذا الحلم المشترك، علمًا بأن الأحلام المشتركة أرخصُ سعْرًا من الأحلام الفردية..

المحلاتُ التجارية التي تبيع عندنا الألبسة، هي نفسُها تبيع الأحلام، حسب الطلب ووفقَ المقاسات!

ويستطيعُ المرء أن يشترك في عدة أحلام، مع عدة أشخاص، في ليلة واحدة..

ولكُلّ حُلمٍ ثمن..

تذكّرتُ هذا وأنا أُنصتُ للزعيم وهو يُضيف: «من أجل ذلك، فإنّ الرُّوبوت سيؤدي الثمن.. الفُضول قد أوقعهُ في الفخّ!»..

تأسّفْتُ لمصير هذا الرُّوبوت الخارج عن القانون..

وتحسّرتُ أكثر لأُنثاهُ المعدنيةِ الوَلْهانةِ في شُقّتي..

هي تُحبُّهُ كثيرا، لا شكّ في ذلك.. وتشكُو من أنه نوّام!

هذه صورةٌ من عالم المعادن الذّكية.. صورةٌ لمعادن يسْكُنها عقلٌ وقلبُ إنسان..

سألني الزعيمُ عن حالتي النَفسية، فقلتُ: «أشتاقُ إلى "سُونا".. أنا لا أعرفُ عنها شيئًا.. فقد وصلتْني منها رسالة.. الرسالة لا تتضمّنُ معلومات عنها.. هي لا تتحدّثُ عن حالتها "النبتُونية".. تتحدثُ عن إيحاءاتٍ أرضية لا عن واقعةٍ في "نبتُون".. فلماذا لم تتحدثْ عن نفْسها؟ أين هي؟ الرسالةُ أثارتْ في نفْسيتي الكثيرَ من الاستفهامات!»..

وطمْأنَني الزَعيم: «لا تقْلَق.. فهي بخير.. وسوف تراها.. وتلتقيها.. وتحضنُها في عُرس "نبتُوني" أسطوري»..

وأضاف الزعيم: «عندي خبرٌ مُفرِح.. لقد تحدّثتُ مع "العاصمة"، وإذا كُنتَ ترغبُ في الالتقاء بكبار مسؤوليها، فإنك تستطيعُ ذلك.. فقد تلقّيتُ الضوءَ الأخضر كي أُرتّبَ لك هذه الزيارة، متى شئتَ!»..

ـ انفرجَت الأحوال..

هذا الزَعيمُ يتعاطفُ معنا، بلا شك..

أصبحَت تربطُنا لُغةٌ فيها نبضاتٌ إنسانية..

سألتُه: «خبّرْني يا زعيم، هل أنتَ من كوكب الأرض؟»..

ابتسم: «أجدادي من "طنجة".. هاجرُوا الأرض قبل خمسة قرُون.. واستقرُّوا في "نبتُون".. ولعلّك لم تنْسَ الأسطورة التي قدّمناها لكم في حفل التّرحيب.. هذه من تُراثنا العائلي الذي نعتزُّ به أيّما اعتزاز.. ولكنّنا تغيّرْنا كثيرًا هُنا، عما كان عليه أجدادُنا في كوكب الأرض.. ولكنَ الجذُور تجعلُنا نُحبُّكم، وتدفعُنا إلى فعل

المستحيل من أجل الإبقاء على الرّوابط الحياتية مع ذلك الكوكب الذي يرجعُ إليه الفضلُ في تصدير الحياة إلى كواكب المجموعة الشمسية.. فلولا الأرض، ما كانت الشمسُ لتعرف هذا التألّق الحضاري في "نادي النّجوم".. هأنتَ تعرفُ كلَّ شيء.. وتستطيعُ أن تستشير مسؤوليك في الأرض، وتتّخذ القرارَ المناسب.. وأنا رهن إشارتك يا صديقي.. كلُّ شيء جاهزٌ للإقلاع في أية لحظة باتّجاه "العاصمة"!»..

ـ الحمدُ لله.. وأهلاً بكَ صديقًا عزيزًا!

ها هي الأبوابُ تنفتح..

وفي المطار، أصعدُ إلى المركبة..

سأتحدثُ إلى الأرض، وأنا أعلمُ أن الأسئلة لن أتلقّى جوابَها مباشرةً من الأرض، بل من صندوق المعلومات الموجود في المركبة، والذي تتمُّ تغذيتُه بشكل منتظم من قبل فريق المداومة الأرضية، المتتبّع لرحلتنا "النبتُونية"..

أنا الآن في مقصورة القيادة: «أحدّثُكم من المركبة الجاثمة في مطار "واحة المخادعين".. تلقّيتُ من زعيم المحطة الإذنَ "النبتُوني" الرسمي للتوجُّه إلى "العاصمة".. فهل تسمحُون بذلك؟»..

وجاءني الصوتُ الآخر..

ليس في الأرض من لا يعرفُ هذا الصّوت..

إنهُ "كبير الأرض": «يا "لُقْمان"! ستتوصّلُ حالاً برسالة خطية،

صوتًا وصورة، تُسْنِدُ إليك المهمة الرَسمية القاضية بالتحاوُر مع "دولة نبتُون".. ونقترحُ عليها التَراجُع عن قطع العلاقات مع الأرض.. وبعد ذلك، ابحثْ معها ما تراهُ مُناسبًا لإقامة علاقاتٍ جديدة، تجاريًا واجتماعيا وسياسيًا، وفي كلّ أوجُه التعاون الممكنة.. وتستطيعُ أن تختار من رُكاب مركبتك من تراهُم مناسبين للمشاركة معك في وفد الحوار مع "نبتُون"..

ثم انقطع الاتصال..

وضغطتُ على المفتاح مرّتيْن..

وما هي إلا دقائق، حتى كانت سيّارةُ الزعيم قد وصلت إلى بوابة المركبة..

السيارة يقودُها روبوت..

الرُّوبُوتُ هُنا منتشرون على أوسع نطاق..

تجدُهم في كل مكان.. هم يقومون بكل شيء.. الإنسان يُفكّرُ ويخترع.. والرُّوبُوتُ يُنفّذ.. وأحيانًا تجدُ الرّوبوتَ يُفكّر ويبتكر، وفي نفس الوقت يُنفّذ!

أنزلتْني السيارةُ أمام مكتب الزعيم.. أشار إليّ بالدخول، فانفتحت الباب.. ودخلتُ إلى المكتب..

يُشبه إلى حدّ كبير المكاتبَ الفخمةَ عندنا في الأرض..

والتحقَ بنا مسؤولٌ محلّي عن إدارة الجمارك "النبتُونية"..

عقدْنا جلسة عمل لوضع أرضية تحضيرية للعلاقات المستقبلية بين

"الأرض" و"دولة نبتُون"..

ثم انفضّ الاجتماعُ التّمهيدي، على أن نتوجّهَ معًا في اليوم التالي إلى "العاصمة".. وقبل ذلك عليّ أن أختار من طاقم المركبة ورُكّابها نُخبةً من أحد عشرَ فردًا، نساءًا ورجالاً، لأكون أنا الثاني عشر..

ـ رقمٌ يُذكّرُ بشهُور السّنة الأرضية!

وقد اخترتُ فعلا هؤلاء، ومنهم اثنان من الطاقم، وعالمان في الفيزياء الفلكية، وطبيبان، وتاجران، وإداريان.. وطبعًا، لم أنسَ أن تكونَ في التّركيبة رفيقتي "سُونا".. فنحنُ في الأرض اعتَدْنا ألاّ ننسى أقربَ الناس إلينا في المهامّ الصّعبة..

وفي الموعد المحدّد كُنّا في المطار..

كان علينا أن نَرْحل إلى "العاصمة"، ولكن فوجئنا بوصول مبعوث عن "دولة نبتُون" لكي يعقد معنا جلسة عمل تحضيرية..

دخلنا إلى مكتب الزعيم، وانطلقَت الجلسة..

استهلّ المبعوثُ الرسمي هذه الجلسة بكلمةٍ ممّا قال فيها: «... إنّنا على استعدادٍ لطيّ صفحات الخلاف مع "الأرض"، وتدشين مرحلة جديدة من التعاوُن بين الكوكبيْن الشّقيقيْن.. ونضعُ لذلك شرطيْن: الأولُ أن تقتنع "الأرض" اقتناعًا تامًّا بأنهُ لا مجال لأي تلاعُبٍ بالعلاقات معنا.. فنحنُ كوكبٌ جادّ، ونضعُ الجدّيةَ أساسًا لتعامُلاتنا المستقبلية.. إنّنا لن نقبلَ بضائعَ أرضيةٍ مغشُوشة، ولا مواعيدَ غيرَ مُلتزَمٍ بها، ولا أيّ سلوك غير أخلاقي وغير حضاري.. هذا شرطُنا

الأول.. الشّرطُ الآخرُ هو إعادةُ النظر جُملةً وتفصيلاً في العُقدة الموقّعة سابقًا بيننا حول وارداتنا البشرية من الأرض.. ولكي تستوْعبُوا ما نقصد، إليكم لوحة صوتية مرئية أعددْناها لكم.. فتأمّلُوها، قبل أن ندخُل معكم في نقاش.. فهذه اللوحة تهمُّ العلاقات الأرضية "النبتُونية".. واسمُ اللوحة: "ثلاّجةُ الحياة"»..

□ افتتحَ الزعيمُ النقاش قائلاً: «أُخبرُكم أنّ جلستَنا التاريخية مبثُوثةٌ باتّجاه "الأرض"، عبر القنوات الشّمسية.. وأُعطي الكلمة للسيّد مبعُوث "دولة نبتُون".. فليتفضّلْ!»..

أعرفُ أن الخط مع الأرض ليس مُباشراً..

التزمتُ الصمت..

وتكلّم مبعُوثُ "دولة نبتُون": «لعلّ لوحةَ "ثلاّجة الحياة" تختصرُ الكثير ممّا يُمكنُ أن يُقالَ عن موضوع الإنجاب.. إن كوكبَنا بحاجة فعلية إلى بشرٍ جديد.. وإنّ الأجنّةَ التي تدفعُون بها إلى الثّلاّجات، مَعشرَ الأرضيين، كي تنتظرَ دورَها في الحصول على حقّ الحياة، نحنُ نُريدُها في "دولة نبتُون".. فصدّرُوها إلينا في مُعلّبات مُثلّجة، ونحنُ سوف نقومُ بتسليمِها إلى الأرحام الصّناعية المتوفّرة لدينا، وذلك حسب الحاجة الكوكبية، والحاجات المحلّية لكل من أقمار ومحطات "دولة نبتُون".. وسوف نُربّي هؤلاء الأطفال تربيةً مُتّزنة، ونُنشّئُهُم أحسنَ تنشئة، فنصنع منهم العُلماء والحُكماء ومن يمكن أن نعتمد

عليهم جميعًا، أنتم ونحنُ وكلُّ أسرة مجموعتنا الشمسية، في بناء "حضارة الشمس".. وطبعًا، مُقابل ذلك، سنُصدّرُ إليكم كل ما تحتاجُون من معادن ونفائس الصخور».

سكتَ مبعوثُ "دولة نبتُون" لحظة، ثم التفتَ إليّ: «ألتمسُ منكَ سيادةَ مُمثّلِ "الأرض"، أن تستشير كوكبَكم، فإذا وافق فسنذهبُ معًا إلى عاصمتنا لعقد مُعاهدة.. إنّنا إذا وافقتُم، سنُقيمُ حفلات تاريخية، ترحيبًا بأجنّةِ الأرض، وبالتالي أبناء وبنات "دولة نبتُون"».

وأخذتُ الميكروفون: «حضرات السيّدات والسادة.. أسْعَدَني أن أعْلَمَ أن هذه الجلسة مبثُوثة إلى الكوكب الأرضي، وأنّ "الأرض" التي أتشرّفُ بتمْثيلها هُنا تُتابعُ معنا هذا اللقاءَ التاريخي.. وما دامتْ "الأرضُ" تُتابع الجلسة، فإنّ رأيها الحاسم قد يصلُنا قبل انتهاء المداخلات.. وبالمناسبة، أودُّ أن أُسجّل أن مسألة التصدير البشري من كوكبنا في شكل أجنّة، مسألةٌ ذاتُ أبعادٍ أخلاقية وحياتية.. وهو موضوعٌ قابلٌ للمعالجة، خاصّةً ونحنُ مُتأكّدون أنّ أحفادَنا سيُساهمُون مع أحفادكم هنا، على هذا الكوكب، في بناء حضارة بشرية تحملُ عاليًا رايةَ الشّمس بين نجوم الكون الشاسع الرّحب.. ولا تفُوتُني المناسبة دون توجيه تحيّة الأسرة الأرضية إلى الأسرة "النبتُونية".. هذه تحيةُ تعاوُن وتضامُن وإخاء.. ونحنُ أهلُ الأرض مُستعدُّون لنسْيان كل سلبيات الماضي، سواءٌ أتتْ منكم، أو منّا.. فنحنُ أبناءُ الحياة مُعرّضُون للخطأ، ولكن من خصالنا، أنتُم ونحنُ، أنّنا نعترفُ

بالأخطاء، ونعملُ على تداركها وتصحيحها.. ومن أجل هذا نحنُ هُنا معكم إخوانَنا "النبتُونين" وأخواتنا "النبتُونيات"...»..

وتدخُلَ مبعوثُ "دولة نبتُون" من جديد: «إذا حصلْنا على الموافقة المبدئية لمقايضة الأجنّة الأرضية بالصّخُور "النبتُونية"، فإنّنا سنترُكُ بقية التفاصيل التّقنية لخُبرائنا هُنا وهناك.. فالسادةُ الخُبراء سيُقدّمُون، بلا شك، اقتراحات يمكنُ أن تُرضي الطرفيْن إرضاءً تامًّا...»..

وقبلَ أن يُكمل المسؤولُ "النبتُوني" مُداخلتَهُ، وصلَ خطابٌ صوتي من "كوكبِ الأرض"..

تقولُ "الأرض": «نحنُ مُتّفقُون مع أيّ قرارٍ سيتّخذُهُ وفدُنا الحاضر معكُم.. ولقد بعثَ "كبير الأرض" إلى القائد "لُقْمَان" برسالة خطّية، وبالصّوت والصورة، تُسندُ إليه المهمةَ الرّسمية القاضية بالتّحاوُر مع "دولة نبتُون".. ومن جديد نؤكّدُ هذه الصلاحية.. فواصلُوا عملَكم.. واللهُ الموفّق!»..

صفّقَ الحضور..

وأعلنَ مبعوثُ "دولة نبتُون" أنهُ يُمكنُنا أن نُسافر فوراً إلى "العاصمة": «هُناك، سيعقدُ وفدٌ رسمي عنّا جلساتٍ تقنية معكم، إخوانَنا الأرضيين، ثم ننطلقُ في إجراءاتِ الاتّفاق.. ونحنُ نُفضّلُ تسميتها "مُعاهدة"»..

مرةً أخرى صفّقَ الجميع..

وخرجْنا من القاعة باتّجاه مُدرّج الإقلاع، في المطار..

كانت طائرةٌ رسميةٌ بانتظارنا..

أخذْنا مَقاعدَنا.. وطرْنا في الأجواء..

وفي الأجواء، وصلتْني رسالةٌ عبر البريد الإليكتروني الكوني..

فتحتُ الرسالة: «أنا هي.. "سُونا".. فقد بلَغني أنك اخترْتني للانضمام إلى وفدك الأرضي.. ستجدُني في مطار "العاصمة" بانتظارك.. ولكن عليكَ أن تعلم من الآن أن الحوار لن يكون بالسُّهولة المتوقّعة.. ففي مواقع المسؤولية هُنا ثُلّةٌ من مُتطرّفي الفكر.. بل إن بعضهم مُتعصّبُون إلى أقصى الحدود.. هؤلاء يتبنّون طرحًا لا يمكنُ أن نقبَله، لا نحنُ ولا أيٌّ من الكواكب الأخرى السابحة حول الشمس.. وأقترحُ أن نعقد جلسة مُغلقَة، نحنُ أعضاءُ الوفد الأرضي، لإعداد تصوُّرات واضحة.. وإلى اللقاء!»..

كانت الطائرةُ الرّسميةُ تقتحمُ الأجواء.. ومن النّوافذ تبدُو السُّحُبُ شديدةَ الزُّرقة.. ومُمثلُ "دولة نبتُون" يُطلقُ بين الحين والآخر كلمات ترحيب.. وأحيانًا يُغنّي..

هو شخصيةٌ مُتميّزة..

له تجربة كبيرة في الحياة..

وقد كتبَ في إحدى مقالاته الأخيرة بجريدة "أخبار نبتُون": «تعذّبْتُ في مشوار البحث عن مهنة تُلائمُني.. فاشتغلْتُ مُعلّما وطبيبًا ثمّ نجّارًا وحدّادًا، ولكن أحسنَ مهنة أثّرتْ فيّ وأثّرت عملي

السياسي، هي "مهنةُ الحلقة" .. فكنتُ أجمعُ حولي الناس في الساحات العامّة، وأعقدُ حلقاتٍ للطرَب والرَقص، ثم أحكي لهم الحكايات التّراثية النّادرة.. وكانت التّلفزيوناتُ تنقُلُ الكثير من هذه "الحلقات" التي صارت موضوعَ اهتمام النّاس»..

هذه زاويةٌ من شخصيةِ مبعُوث "دولة نبتُون" إلى هذا الحوارِ التاريخي مع "الأرض"..

وفي هذه الرحلة الجوية، استيقَظتْ في الفنّان "النبتُوني" حميميةُ "الحلقات"، فوقفَ أمام الرّكّاب، وكأنهُ في ساحةٍ عمُومية.. وقال: «إنكُم تُذكّرُونني بأيام "الحلقة".. كانتْ جميلة.. وإذا كان لي من أمل في ما تَبَقّى من حياتي، فهو أن أعُودَ من جديد إلى الساحة الحلْقَوية»..

وألقَى إليّ بنظرةٍ فاحصة، وقال مُبتسمًا: «يا أخي القائد.. هل تسمحُ لي بالجلوس إلى جوارك؟»..

أجبتُه: «تفضّلْ.. أهلاً وسهلاً!»..

واتّخذَ مكانه إلى جواري في الطائرة، وابتسم: «سأحكي لك قصة من "وادي الحرير".. أنتَ لا تعرفُ هذا المكان.. إنه قريةٌ جميلةٌ جميلة.. فيها وُلدتُ قبل قرنٍ من الزمن..وكان أبي يُعلمُني أن أكذب.. وبفضله أتقنتُ فنون قراءة الوجوه الكذّابة!»..

وابتسم الرجُلُ من جديد، وهو ينظرُ إليّ نظرة غير طبيعية..

وأضاف: «أستطيعُ أن أعرف أيُّ كذّاب حتى قبل أن يكذب، طبعًا

عندنا هُنا، في "نبتُون" .. فهل أنتم أيضا تكذبُون؟»..

فتحتُ عينيّ عن آخرهما .. فماذا يقصدُ مبعُوث "دولة نبتُون"؟

قال: «عندما يكذبُ شخص، فهذا كذبٌ فردي.. ولكنْ أن يكْذبَ كوكبٌ برُمّته، فهذه ظاهرةٌ مُخيفة...»!

قاطعتُ الرجُل: «يا سيدي، كُنْ واضحًا، ماذا تقصد؟»..

ضحك ضحكة أخرى: «أقصدُ ما أنت تعرف!»..

ـ وماذا أعرف؟

قال: «تعرفُ أنه يستحيلُ إجراء مكالمة مباشرة بين الأرض و" نبتُون" .. فالمكالمةُ من هنا إلى هناك، أو من هناك إلى هنا، لا يُمكنُ أن تكون مُباشِرة.. عليها أنْ تقطعَ ساعاتٍ من الزمن ذهابًا، وساعاتٍ إيّابًا.. إن المسافة بين الكوكبيْن ليست في حدود ملايين الكيلومترات أو الميلات، بل تُحسبُ بالملايير.. وإذا اعتبرتَ سُرعةَ الضوءُ، وهي ثلاثُمائة ألف كميلومتر في الثانية الواحدة، تجدُ أن من العبث الزّعمُ بأن هناك اتّصالاً مُباشرًا بين الأرض و"دولة نبتُون".. أنا عرفتُ أنكم هذه المرة أيضا قد تصرّفتُم معنا تصرُّفًا غيرَ مقبُول.. نحنُ أيضا كوكبُ العلوم والابتكارات.. وأيضا نحسبُ المسافات بسُرعة الضوء.. فما تفسيرُك لهذا التّحايُل وهذه المغالطة، يا أخي القائد؟»..

كنتُ أتصبّبُ عرقًا..

فهذا الرجُلُ على صواب..

وأنا ليس من حقّي أن أكشف له أن عندنا صندوقَ معلومات

يستقبلُ تدخُّلات أرضية، ويحتفظُ بها مُسجّلَةً بهدف استخدامها حسب الحاجة..

حاولتُ أن أكون لبقًا: «يا سيدي المبعُوث.. ليس في الأمر أيُّ تحايُل أو مُغالطة.. فما سمعْتُموهُ لم تمضِ على استقباله من الأرض إلا ساعات قليلة.. وقد سجلتهُ لكم المركبة، بأمرٍ من الأرض، لكي تسمعُوه، وتتأكدوا أنّنا نحنُ الوفد الأرضي موجودون هُنا من أجل طيّ صفحة الماضي، وفتح علاقات جديدة على أساس التعاون والتقدير المتبادل»..

لم يرُدَّ مبعُوثُ "دولة نبتُون"..

بدَا أنهُ لم يقتنع بكلامي..

وبعد لحظة صمتٍ كانت كالدّهر، سألني: «أنا على استعداد لأنْ أسكُت.. سوف لن أفضحكم، ولكن بشرط»..

ـ وما هو؟

قال: «ما دُمتَ تسألُ عن الشرط الذي أضعُه مقابل صمتي، فأنتَ بذلك تعترفُ بأن الكلام الرسمي الذي بُثَّ علينا من الأرض أثناء الاجتماع في "واحة المخادعين"، هو تحايُلٌ في تحايُل، ومغالطةٌ في مُغالطة!»..

ثم وقف الرجُلُ في حالة توتُّر، وعاد إلى مقعده..

ومن هناك تكلم بصوت مُرتفع: «يا أخي القائد.. مهما تكُن الخلافات، ومهما تكُن التأويلات، فتأكّدْ أنّنا نتفهّمُ أن المسافة

الضوئية بيننا هي فقط بضع ساعات.. وإذن، فحدودُنا المشتركة تتحدّدُ فقط في ساعات قليلة.. ومن حقّنا، أنتم ونحن، أن نتجاوز هذا الشريط الزمني، لا بالقيل والقال، بل بقلوبنا.. ففي قلوبنا أنتم موجودون!»..

وصفّقَ له الرُكاب..

فوقفتُ وردَدْتُ عليه جهراً: «وأنتم أيضا، موجودون في قلوبنا!»..

واشتدّت التّصفيقات..

وقلتُ في نفسي: «الحمدُ لله على هذه النهاية المسالمة!»..

ومن هناك، ارتفعت يدُ المبعوث، وهي تلوحُ بالتحية..

فرفعتُ يدي بتحية مماثلة..

وضحك الجميع..

والتفتَ إليَّ الجالسُ إلى يساري في مقعَد المركَبَة، وهو "الدكتور عاطف"، العالمُ في الفيزياء الشّمسية، قائلا: «ما زلنا إلى الآن، ونحنُ في عصر التّواصُل الفعلي بين الكواكب، نحلمُ بعالم يسوُدُه العدل، وينتشرُ فيه تقديرٌ مُتبادلٌ بين الكائنات، وتتعمّقُ فيه المحبّةُ البنّاءة.. وما زلنا نستمدُّ البراءة من العصافير، وكلُّنا أملٌ في أن نكُونَ نحنُ هذه العصافير المُحبّة للخير، والعاملة من أجل كلّ خير»..

سألتُ هذا العالم: «هل لك تصوُّرٌ عن قواعد يمكن أن نقْترحها كأساسٍ للعلاقات الأرضية مع كل الكواكب الأخرى، بدءاً من

"نبتون" ؟»..

وبقي السؤالُ بلا جواب..

فقد أعلن قائدُ المركبة أن علينا أن نلتزمَ الصّمت: «لأنّ أيّ كلامٍ سيتحوّلُ إلى موجاتٍ يُمْكنُ أن تُزعج هبُوطنا في المطار»..

سكتْنا..

ونزلْنا في المطار..

□ كانت "سُونا" من بين مُسْتقْبلينا..

عقدْنا جلسةً مُغلقَةً نحنُ أعضاءُ الوفد الأرضي..

قلتُ في كلمة الافتتاح: «نحن اثنَا عشَرَ فردًا، نساءًا ورجالاً، على مقاسِ شهُورِ السّنة الأرضية.. في هذه الجلسة سنُعدُّ ورقة عمل فيها مطالبُنا الأرضية بوضوح.. وأخبرُكم أن جلستَنا الرسمية مع وفد "نبتُون" ستنعقدُ بدايةً من الثالثة بعد الزوال.. وإذن علينا أن نعمل بسُرعةٍ وفعالية.. فمن يريدُ الكلمة؟»..

رفعَت "سُونَا" أصبُعَها: «أنا هُنا منذُ يومين.. وليس الوقتُ وقتَ إخباركم بالكيفية التي وجدتُ نفسي فيها هُنا بمدينة "العاصمة"، فهذا موضوع سأطلعُكُم عليه فيما بعد.. ولكن الاتصالات التي كانت لي مع بعض المسؤولين هُنا، أظهرتْ أنّنا لن نجد صعُوبة في الحوار، لأن "نبتُون" لا يلتمسُ منّا إلاّ نُقطتين، وهو صريحٌ بشأنهما: الأولى هي ما يصفهُ "نبتُون" بالجدّية في تعامُلاتنا معه، والثانية رغبتُه

في أن تكونُ أرضُنا مصدرَ إنجاب لملايين من أبناء وبنات " نبتُون" المستقبليين.. هذا من حيثُ الظاهر، ولكن هناك خلفيات يجبُ علينا ألا نستهين بها، وهي نفْسُها التي يُلوّحُ بها من نصفُهم في تعبيرنا الأرضي بالمتطرّفين.. هؤلاء يسعون لبسط الهيمنة "النبتُونية" على كواكب المجموعة الشمسية.. ولهذا المجلس الموقّر واسعُ النظر»..

أخذ الكلمة السياسي "بالي"، المعْروف لدينا على الأرض، فقال: «أرى أن ما أشارتْ إليه " سُونَا" يكتسي أهمية قُصوى ليس بالنسبة إلينا فقط، بل بالنسبة لمجموع كواكب المجموعة الشمسية.. فبعضُ مسؤولي " نبتُون" يَعتبرُون أنّ كوكبَهُم قد ظلمَهُ القَدَر، حيثُ حرمهُ من الكفاية من أشعّة الشمس، أي من الطاقة الضوئية التي لو توفّرَت لدى " نبتُون"، مثلما هو الشأنُ على الأرض، لكانت له أيضا مثلنا أربعةُ فصول مُتساوية، ولكان له طقسٌ غيرُ جليدي، ولكانتْ له امتيازاتٌ أخرى من شاكلة الامتيازات الأرضية.. وهم يعتقدون أنهم عباقرة لأنهم رغم حرمانهم من طقس الأرض، ومن امتيازات الأرض، فإنهم حوّلُوا " نبتُون" إلى عاصمة علمية واقتصادية للمجموعة الشمسية، حيث أن الكُل في كواكب الشمس أصبحَ يطلبُ ودَّ "النبتُونين" تقديراً للنّهضة التي حقّقُوها وجعلتْهم مُؤهّلين لقيادة المجموعة الشمسية لزمن لا يعلمُ إلاّ اللهُ مداه.. نحنُ الآن أمام أنانية مَصدرُها التّخلُّفُ الحاصل عندنا بالمقارنة مع "نبتُون".. فنحن يجبُ أن نُراعي مصلحتَنا.. ومصلحتُنا تكمُنُ في التّحالف مع هذا الجبّار

الذي يتوفرُ على وجه آخر، هو الوجهُ الانضباطي في كفاحه ضدّ الجليد، وضدّ كلّ التهديدات الطبيعية وغير الطبيعية.. أتمنّى ألا نبقى مُتعصّبين لآرائنا بحيث نخسرُ حليفًا استراتيجيًا كبيرًا قد يُساهم معنا في تطوير مجهودنا السّاعي إلى غدٍ أفضل!»..

هذا التدخّلُ لم يُقنع الدكتور "عاطف"، العالم الفيزيائي الذي كان بجانبي في رحلتنا من "واحة المخادعين".. قال: «أُذكّر حضراتكم أنّ لهذا الكوكب خُطة "شمسية" جاهزة للتّنفيذ.. وأرى أنّ فيها الكثير من السلبيات.. الخطة تقضي بقصف الشمس بوابل من الصواريخ الهيدْرُوجينية، بهدف تحريك فُرنها النّووي.. والهدفُ من ذلك هو جعلُ الشمس تُطلقُ أشعّةً أكبر، لكي تُوصلَ إلى "نبتُون" حصّتَهُ منَ الحرارة والإشعاع.. فأهلُ "نبتُون" يَعتبرُون أن الطبيعة قد حرمتهم من التّشمُّسِ الكافي، فنتجَ عن هذا الحرمان أن أصبح كوكبُهم جليديا لدرجة لا تُحتمل.. فلولا الآليات والتّقنيات التي صنعُوها بجُهد جهيد، وخاصةً منها الخيمات والأقبيات الشفافة، والألبسة المكيّفة، لما كانَت الحياةُ ممكنةً في "نبتُون".. وبعضُ مسؤولي هذا الكوكب يُجاهرُون من جديد بضرورة قصف الشمس، الآن قبل الغد.. وإذا حدَث هذا، فإن حصول "نبتُون" على الحرارة المطلوبة، سيعني احتراق كوكب الأرض برُمّته.. إنّنا معشر الأخوات، معشر الإخوان، نُمثّلُ كوكبَ الأرض باعتباره في مدار قريب من الشمس، بينما مُحاورُونا يُمثّلون كوكبًا بعيدًا عن الشمس.. نحنُ قريبُون

منها، أي يصلُنا من حرارتها ما يُحْدثُ طقسًا مُعتدلا، وبالتالي يكفي لإنعاش حياتنا.. ونحنُ غيرُ مسؤولين عن وجود "نبتُون" في مدار جليدي.. وعلينا أن نُجدّد هذه المرة أيضًا رفضَنا التّامّ لأيّ مُخطط يهدف إلى ضرب الشمس»..

وأخذَت الكلمةَ البروفيسورة "لُبْنَى"، وهي أيضا سياسية معروفة لدينا في الأرض: «إنّني أُساندُ الدكتور "عاطف"، وأُنبّهُ من تلاعُبات بعض السّياسيين عندنا، خاصةً عندما نسمعُهم يُعلنون أن علينا أن نُراعي مصلحتَنا.. ومصلحتُنا ليست في التّنازُل للغُول الذي يُريد أن يَفْترسَنا.. مصلحتُنا تكمُنُ في الدفاع عن أمّنا الشمس.. ونستطيعُ أن ننجَح نجاحا مُطلقًا.. كيف؟ سنقترحُ على مُحاورينا "النبتُونيين" أن يدْعُوا هذا الكوكبَ العملاق إلى ندوةٍ تُشاركُ فيها كلُّ الأسرة الشمسية.. ندوة يحضرُها "المرّيخ" و"المشتري" و"نبتُون" و"الزّهرة" وكلُّ الكواكب المعنية.. وتُدعى إليها كلُّ الأقمار والتّوابع، وحتى القوافل الرّحّالة في الفضاء، وتمثيليات الأقلّيات الفضائية التي تعتبرُ نفسَها مهضومة الحقوق.. فهؤلاء جميعًا معنيُّون بقضية الشمس، وعليهم واجبُ تقرير مصيرِها من خلال تحديد التعامُل معها من قِبَل كُلّ الأطرافِ العُضو في نادي الشمس.. ومن جهتنا، نحنُ المصابين بالإدْمان السياسي، نستطيعُ أن نفعل الكثير في هذا الاتجاه.. فبدلَ اللعب على العواطف، والتّحايُلِ بالديماغوجية، نستطيعُ أن نُحرّك الرأيَ العام، وخاصة في "نبتُون"، فنُحسّسهم أن أي مساس بالشمس

لن يكون مُضرًا بغيْرهم فقط، بل قد يتسبَّبُ في تغيير جذري لكل معالم وأوجُه حياة كوكب "نبتُون" نفسه.. سنقولُ للرأي العام: إن الطبيعة قد وضعَت "نبتُون" في مدار مُعيَّن، ووزَّعَت بقيةَ الكواكب الشمسية على مداراتٍ مختلفة.. فأيُّ تغيير في محْورِها الجماعي، والمِحْوَرُ هُنا هوالشمس، سيُلحِقُ الضَّرَرَ المُدمِّرَ بكل الكواكب.. وسنقولُ لهم: احذرُوا معشرَ "النبتُونين" من أية تلاعُبات بالمدارات، واحذرُوا أيَّ مساس بالشمس.. إن الشمس هي أمُّنا المشتركة.. هي من أرضعَنا الحياة.. وهي ضامنُ استمرارنا في مواقعنا.. وضامنُ تراقُصنا في هذه الرُّقعة من الكون.. فيجبُ أن نُفكر جيّداً.. إن قصفَ الشمس سيكونُ عملاً جنُونيًا.. وعلينا أن نمنعَ المجانين، وبكُلّ الوسائل المتاحَة، من تدمير حياتنا المشتركة.. هكذا يجبُ أن نتحدَّثَ إلى إخواننا "النبتُونين".. وبهذا الأسلوب، نستطيعُ أن نبني معهم مُستقبلاً مشتركا قوامُه التَعاوُنُ والتآلُف».

ـ شُكراً للبروفيسورة "لُبْنَى"، والكلمةُ للفقيه المتمرّس، السيد "عطاء": «أنضمُّ للبروفيسورة، وأضيفُ أنّ "نبتُون" لا يوجدُ فيه مُتطرّفون فقط، فيه أيضًا عُقلاء، حُكماء، عُلماء، سياسيُون يُدركون أن حياة "نبتُون" لا يمكن أن تكون بدون حياة كوكب "الأرض" وبقية الكواكب.. ولا خيار لنا إلا أن نتعايش.. ومن باب حقّنا جميعًا في التعايُش، علينا أن نستغلّ أيُّ اقتراح بنّاء من إخواننا "النبتُونين".. فنحنُ أهل الأرض نستطيعُ أن نفسح لهم مجالاً واسعًا للعمل

المشـــتـــرَك.. وإنـهـم إذ يُـريدون أن يـكون لأبـنائـنا وبـناتـنا وجـــودٌ في مُستقبل "نبتُون"، فهذا يعني ببساطة أنّ كوكبنا سيكونُ حاضراً في تسيير وتوجيه وإنعاش "نبتُون".. إنّنا أمام حوار تاريخي، مصيري.. ويجبُ أن ندخُله بتفاؤلٍ وبحُبّ!..

ـ شُكرا للفـقـيـه السـيـد "عطاء"، والكلمـةُ للتّاجـرة السـيـدة "فلافل".. فلتتفضّلْ مشكورة..

وقالت "فلافل": «أعتبرُ أن هذا المجلس المحترم يسيرُ بنا في اتّجاه إيجابي.. أرى أنّنا نتلمَّسُ الإيجابياتِ الحقيقية.. وقد أثارَ فيَّ الفقيه، السيد "عطاء"، حماسًا خاصًّا وهو يختم كلمته بأنّنا أمام حوار مـصـيـري يجبُ أن ندخُله بتـفـاؤلٍ وحُبّ! أجل، إنّنا قد جئنا إلى "نبتُون" لا بتحفُّظ، بل بقلُوبنا، أي بكُلّ الحبّ.. فالحساباتُ الضيّقة بين بعض السياسيين، ليست هي حساباتنا نحنُ الشعوب.. فالشعوبُ تُريدُ الحياة.. ولا تُريدُ إلا الحياة.. ولا ننسى أنّ لنا معشرَ الأرضيين أشقّاء في "نبتُون".. أشقّاء من أصولٍ أرضية.. فإلى هؤلاء، وإلى كلّ "نبتُوني" يُراهن على حياة أفضل، نتقدمُ بتحية خالصة، ونُعبّرُ عن استعدادنا لتقبُّلهم في الأرض، والتّرحاب بأية مشاريع حضارية منهم على كـوكـبنا.. نـحن نفـتـحُ لهم ذراعـيْنا.. ونتـجـاوزُ برُفـقـتـهم أيةَ خلافات قد يكونُ تسبّبَ فيها بعضُ المسؤولين هُنا أو هناك.. لقد جئنا إلى "نبتُون" بالاحترام والتقدير والمحبة.. هذا رصيدُنا وهذا هدفُنا.. جئنا من أجل الحـيـاة، ومـزيد من الحـيـاة، لنا ولإخـوتـنا في كـوكـب

"نبتُون".. إنهُ الخطابُ الواضح الذي يجبُ أن يسمعوهُ لا من ألسنتنا بل من قلُوبنا»..

كانت هذه أهمَّ النُّقط الواردة في اجتماع الوفد الأرضي..

□ وبانتظار الحوار الحاسم، بدءاً من الثالثة بعد الزوال، سألتُ "سُونَا": «أين كُنت يا "سُونا"؟ لقد حركتِ فيَّ القلقَ الشديدَ عليك.. فما سرُّ اختفائك المفاجئ في "واحة المخادعين"؟ ثم ظهورك في "العاصمة"؟»..

أجابت: «كنتُ برُفقة شابّ "نبتُوني" شهْم...»..

ـ شهم؟

خطرَ ببالي أن هذه لا تَراني شهْمًا: «وإذن، لا ترى الشَّهامَةَ إلا في غيري.. إنها لم تُضيّع وقتَها.. فأولُ "نبتُوني" جاءَها، اعتبرَتْه شهْمًا.. وفارسَ أحلام!»..

خطر هذا ببالي وأنا أنظُرُ إليها..

ابتسمَتْ "سُونَا": «هذا ليس فارس الأحلام.. فهذا جاءني في مُهمّة.. وأنا الأخرى أتيتُ إلى "نبتُون" في مُهمّة!»..

ـ مُهمّة؟ وأيةُ مهمّة؟

أجابَت: «رسالةٌ من الأرض.. هذه مُهمّتي.. كانت معي رسالة.. فلدى نزولنا أولَ مرة بمطار "واحة المخادعين"، وقبل أن ندخُل إلى صالة الترحيب، سلّمتُ لزعيم المحطة هذه الرسالة.. وبفضلها أستطيعُ أن

أؤكد لك أن لهجة المسؤولين "النبتُونين" تغيّرت تماما.. فقد تراجعوا عن قرار قطْع العلاقات مع الأرض، وأصبحُوا لُطفاء في التعامُل مع كل الأرضيين الذين رافقُونا إلى هُنا، ولرُبّما كانوا أكثر استماعًا، فتقديرًا لقائدنا إلى هذا الكوكب»..

تأمّلتُ "سُونَا" طويلا، وبصمْت، ثم سألتُها: «من أنت؟»..

قالت: «أنا مُوزّعةُ الرسائل.. أنسيتَ هذا؟ مُهمّتي هي توزيعُ الرسائل.. وقد تم اختياري لنقل رسالة أرضية إلى "تِيتَا"، رئيسة "دولة نبتُون".. هذا ما فعلتُ بالذات.. فقد أتى شابٌّ رسمي إلى "واحة المخادعين"، وحمَلني معه إلى "العاصمة"، حيث نقلتُ الرسالة إلى "تِيتَا"»..

ـ وإذن، ما مُهمّتي أنا؟ إنّني قد أُمرتُ رسميًا بالنيابة عن "الأرض" في الحوار مع "نبتُون"، وتوقيع أيّ اتّفاق معها نيابةً عن الأرض.. فما هذه الازدواجية؟ كيف تُسندُ "الأرضُ" إليك مُهمة، وتُسندُ إليّ مهمة أخرى؟ ما هذا الانفصامُ في المهامّ؟ وما هذه السرّية؟ فأنا اعتبرتُ أنّني المسؤول الأرضي الأول في الحديث مع أيّ "نبتُوني"، وهأنت تظهرين بمسؤولية أخرى قد تُعرقلُ مسؤوليتي.. فمن فينا سيتكلمُ مع آلِ "نبتُون"؟ ومن لهُ كلمةُ الفصل؟ هل أنت؟ أم أنا؟ أم نحنُ معًا؟ أم لا أحد منّا؟ أنا لم أعُد أرى الأمورَ بوضوح.. فلا يُستبعدُ أن نُفاجأ بعد قليل، في جلسة الحوار "النبتُوني" بشخص آخر، قد يقفُ ويُعلنُ أنه يحملُ توكيلا من الأرض.. ما هذا؟..

اقتربَتْ "سُونا" منّي أكثر، ووضعَت يدَها على كتفي، وقالت: «أنتَ قائدُ الوفد الأرضي، وأنا مُجردُ ناقلة رسالة رسمية.. فلا تقلق!»..

وابتسمَتْ: «هيّا ندخُل إلى القطار.. فكلُّ أعضاء الوفد الأرضي قد أخذُوا مقاعدهم.. ولي توضيحاتٌ سأعلنُها أثناء جلسة الحوار "النبتُوني"»..

كبُرَت "سُونا" في عينيّ..

فهذه الشابّةُ ليست أنانيةً مثلي.. وهي نُموذجٌ للمرأة التي تُكبرُ في الرجُل شخصيتَه.. وقد أسعدني أنْ وَضعتْ أناملَها على كتفي.. لقد طمْأنتْني.. أشْعَرتْني أنّنا فكرٌ واحد، وإحساسٌ واحد..

□ وصلْنا إلى البناية الكُبرى لدولة "نبتُون"..

إنها الساعة الثالثة..

زعيمُ "واحة المخادعين" يهمسُ في أذُني: «علمتُ يا صديقي أن الاجتماعَ ستَحضرُه الرئيسة "تيتَا".. فسيادتُها تَعتبرُ أنه اجتماعٌ في غاية الأهمية.. سيُحدّدُ مصير العلاقات الأرضية "النبتُونية"»..

جلسْنا الثلاثة جنبًا إلى جنب: "سُونا" إلى يميني وزعيمُ "واحة المخادعين" إلى يساري..

وفي باقي المقاعد يجلسُ "النبتُونيون" والأرضيون جنبًا إلى جنب، وبطريقة عشوائية، عكس ما يحدثُ عندنا في الأرض، حيث يجلس

نـاءُ أي وفد في مقابلة الوفد الذي يُحاوره..

زعيمُ "واحة المخادعين" فسّرَ لي ذلك بأنه «إشارةٌ من "دولة نبتُون" أنّنا جميعًا، أنتم ونحن، أبناءُ أسرة شمسية واحدة»..

وتدخُلُ الرئيسة..

هذه "تِيتَا"، رئيسةُ "دولة نبتُون"..

نقفُ جميعًا لتحيتها: "صباح نبتُونِي"!

وتردُّ علينا بابتسامةٍ عريضة: «"صباح نبتُوني"! "صباحُ ض"!»..

ويُصفقُ لها الجميع.. تصفيقاتٌ حارّة تردُّ عليها الرئيسة "تِيتَا": .ا يومٌ واحد.. الأرضُ و"نبتُون" محْوَران لخطّ واحد.. هُما شقيقان ن طريق واحد.. فأهلاً بإخوتنا وإخوانِنا الأرضيين.. تفضّلُوا لوس!»..

جلسْنا، ثم طلبَت منّا أن «نُحيّي الشمس التي جمعَتْنا.. إنها .. ونحنُ بناتُها وأبناؤُها!»..

وبدأت الرئيسةُ خطاب الاجتماع: «لن أُطيل عليكم.. فالأرضُ بتُون" توأمان.. مصيرُنا واحد.. أهدافُنا مُشتركة.. علاقاتُنا مرّت سمونه في الأرض "سحابةَ صيْف".. ولا نريدُ من الأرض إلا التزامًا ليًا بالأخلاقيات الشمسية.. ونحنُ أيضا سنلتزم بهذه لاقيات.. لأنّ الشمس أطال اللهُ عُمرَها، تُعطينا درسًا عظيما في هُور إلينا من أفقها العظيم في أوقات مضبوطة، وهي تغرُبُ عنا في

أوقات دون غيرها.. الوقتُ عندنا أساسي لأيّ تعامُل مع أيّ من الكائنات.. كما نلتمسُ منكم تزويد "نبتُون" ببضعة ملايين من الأجنّة البشرية، على أن تصلنا في القريب العاجل دفعةٌ أولى، بانتظار دفعات مستقبلية، لعمارة هذا الكوكب وأقماره ومحطّاته السابحة في الفضاءات "النبتُونية".. ومن جانبنا، سنتكفّلُ بكل المصاريف، وسيُشرفُ على زرْعِ هذه الأجنّة في أرحام صناعية، ثم على عمليات التّوليد، ثُلّةٌ من خبرائنا في الهندسات الطبّية.. ويمكنُ لكوكب الأرض أن يُشرفَ معنا على مُختلف مراحل الإنجاب، ثم نموّ الأطفال الذين سيأتُونَ من هذه الأجنّة.. نُريدُكم أن تطمئنّوا إلى أن هؤلاء الأطفال سينشأون في تربية مثالية.. فنحنُ عازمُونَ على أن نصنع منهم أطُرنا وقادتنا وأدمغتَنا المستقبلية.. وهذا سيُكرّسُ عُمقَ الروابط مع شقيقتنا الأرض.. إنّنا على اطلاع على مختلف الآراء التي عرضتمُوها في جلسات "واحة المخادعين" وفي "العاصمة"، ثم في لقاءاتكم الثنائية والثلاثية.. فقد التقَطنا بوسائلنا التواصُلية كلَّ الأفكار التي تداولتُموها، وفكّرتُم فيها.. ونعتبرُ أنها أفكارٌ مُهمّة قابلة للتّنفيذ.. كما نُطمْئنُكُم بشأن المخاوف التي تنتابُكم.. إنّنا لا نتحمّسُ لأية نوايا توسّعية.. فنحنُ لن نُهيْمن على كواكب المجموعة الشمسية.. نَقْبَلُ قَدَرَنا كما هو.. فالشمسُ قد وزّعتْ على الجميع أضواءَها وحرارتها.. ونحنُ نتقبّلُ حصّتَنا من الأشعّة بصدر رحب.. ولا نحسدُكم على قُرب موقعكُم من الشمس، ولا نلومُ أحداً على

بُعدنا عن أمّنا الشمس.. طبعًا، يُواجهُ كلٌّ منّا مصاعب.. إلاّ أنها قابلةٌ للتّبديد، بفضل تعاوُننا المشترك.. ونحنُ نُراهنُ على هذا التعاون في كلّ المجالات.. وإذا شئتُم، معشرَ الأرضيين، فنحنُ على استعداد لمنْحِكم قمراً من أقمارنا الدائرة حول "نبتُون"، كي تكُونَ لكُم مصالح استثمارية وإدارية في عوالمنا.. كما يمكن أن نُزوّدَكُم بما تُريدُون من المذنّبات المحجوزة عندنا، ومنْ الصخور المعدنية، ومن مُختلف الثروات الغازية وغيرها.. فنحنُ نعتبر أن الثروة الحقيقية ليسَتْ في الصُّخور، ولا في أعماق أيّ كوكب، ولا في الأقمار ولا على المذنّبات وعلى حتى في الغبار الإشعاعي المنتشر حولنا.. الثروة الحقيقية ليست في كل هذا، بل في الكائن البشري الذي يستطيعُ أن يُراقب كلَّ شيء، ويتعاملَ مع كلّ هذه الخيرات الشمسية.. وإذن، فأنتم معشر الأرضيين، تجدُون وستَجدُون أنفُسَكم وأهلَكم وأحفادَكم، وبالتالي مُستقْبَلَكُم في "نبتُون".. فتعالوا نتعاونْ من أجل بناء "نبتُون العظيمة"! وأخيراً، نعتبرُ أنّ وجودكم المكثّف على كوكب "المرّيخ" ليس استعماراً ولا احتلالاً ولا رغبة في بسط أية هيمنة على باقي الكواكب.. إنّنا نعتبرُه وجوداً حياتيًا طبيعيًا يستحقُّ التّشجيع.. فأنتم معشر الأرضيين جئتم إلى هذا الكوكب وهو بلا بشر.. وإذا طلبتُم منّا أية مساعدة على "المرّيخ" من أجل تطويره، فنحن رهن إشارتكم.. ومرة أخرى أهلاً بكم.. "صباح نبتُوني"! "صباحُ الأرض"! ومعًا إلى الأمام!..

انتهى خطابُ "تيتا" ..

وتعالت الهُتافات ..

وردّدت الجُدرانُ أصداءَ التّصفيقات الحارة ..

وبعدئذ تناقلت التلفزاتُ الشّمسيةُ البيان التالي من كوكب الأرض: «تتبّعْنا بتقدير خطابَ "تيتا"، رئيسة "دولة نبتُون" المحترمة .. ومن جانبنا نُشاطرُها كلّ ما وردَ على لسانها .. ونلتمسُ من سيادتها القيام بزيارة رسمية إلى الأرض .. فما دُمنا قد وصلْنا إلى هذه النتيجة الهامة، فإنّ حوارنا لن يتوقّف عند لقاء اليوم، بل نقترح أن يتواصل بالبحث عن المصالح التي تجمعُنا، والأهداف المشتركة .. ولهذه الغاية، يُمكنُ تشكيل عدة لجان، كلٌّ منها في مجال اختصاصها، ليشمل تعاوُنُنا المستقبلي كلّ المجالات .. ونحن نتّفقُ على كل ما سيتمخّضُ عنه لقاؤُكم مع وفدنا الأرضي .. وإليكم تحية نضالية خالصة .. والسلامُ عليكم!» ..

وصفّقت رئيسةُ "دولة نبتُون" ..

وصفّقَ الحضُور ..

بينما كان المبعُوثُ الذي استفزّني في الطائرة، ينظرُ إليّ نظرات ثعْلبية ..

في الساحة، اقتربَ منّي وهمس في أذني ضاحكًا: «لا تقلق! أنا فقط كنتُ أمزح .. وسيادتُك لا تجهل بالطبع أنهُ يستحيلُ التدخّلُ الصوتي المباشر من الأرض إلى "نبتُون" .. ومع ذلك، فما دام الكلامُ

هو كلامُ الأرض، فلا يُزعجُنا أن يكون قد قيل منذ ساعات.. المهمُّ أنه كلامٌ أرضي مسؤول.. وطبعًا، لا بُدَّ من إبداء التقدير الخاص لمركبتك على هذا الإخراج الصوتي المرئي المقْنِع.. إنكم دُهاة!»..

ثم ابتسم، وعاد إلى مكانه بجوارِ أحد أعضاء الوفد "النبتُوني"..

أنا لم يعُد يهُمُّني هذا المشاغب..

وقبل استئناف الجلسة دعَتْنا الرئيسةُ إلى شُرْبِ "نخْب الشمس"..

دخلْنا إلى القاعة المجاورة.. هذه مجموعةٌ من الرُّوبوت يُوزّعون على المؤتمرين كؤوسًا صغيرة بها مشروب.. قالت لي "سُونا": «هذا ليس مشروب التّغذية، فنحنُ لن نحتاج إلى غذاءٍ وشرابٍ لمدة شهر.. المشروبُ الذي وُزّع علينا اسمُهُ "مشروبُ الشّمس"، وهو يُوفّرُ التّسخين التلقائي للجسم طيلة شهر على الأقل.. وهناك مشروبات تُسخّنُ الجسم لمدة عام كامل»..

ـ وما أهميةُ التسخين؟

قالتْ: «سمعتُ أنه ليس تسخينًا للجسم فقط، بل هو تسخينٌ للدماغ.. إنه مشروبُ العلماء والفنّانين والمفكرين والسياسيين.. يشربونه عندما يتهيّأون لممارسة رياضات خيالية.. كما يشربهُ أيضًا أصحابُ الحرَف والمهَن، بهدف الابتكارِ والإبداع!»..

وبينما "سُونا" تُكلّمُني، تقدّمُ منها نفسُ الشابّ الذي كان معها من قبل..

همسَ في أذُنها، وانصرفتْ معه!

ـ ما قصةُ هذا الشابّ؟

لم أنتظرْ طويلاً لمعرفة الحقيقة، فما أن عُدنا إلى الجلسة حتى كانت "سُونا" بجانبي.. سألتُها: «أين كُنتِ؟»، ابتسمتْ: «الرئيسة "تيتَا" بعثتْهُ إليّ.. هل تعرفُ ما تريدُ الرئيسة؟ لقد سألتني عن "كبير الأرض".. من هو؟ وكيف هو؟ وكيف يتعاملُ مع غيره؟ وهل هو مُتزوّج؟!»..

ـ أسئلةٌ عجيبة!

همسَتْ "سُونا" في أذُني ضاحكة: «إنهُ الإعجابُ يا "لُقْمَان".. هذه أعراضُ العشق "عن بُعْد".. يبدُو أن الرئيسة انْجَذَبَتْ إليه قبل أن تراه!»..

بادلتُها الضّحكَ الخافت، واستُؤنفَ الاجتماعُ الحاسم..

تشكّلتْ لجنةٌ مُختلطةٌ لصياغة المعاهدة..

وكانت المعاهدةُ الأرضيةُ "النبتُونية" كما يلي: «اتّفقنا على إعادة فتح العلاقات الثنائية، وإعلان توأمة الأرض و"نبتُون"، وعلى أن تُحدّدَ الرئيسةُ موعداً لزيارة رسمية إلى كوكب الأرض، والشروع فوراً في تشكيل لجان ثنائية لبحث ما يتوجبُ عملُه لتطوير العلاقات في كل الميادين.. كما اتّفقنا على تصدير أجنة أرضية إلى "نبتُون"، على أن تتكفّلَ هذه الأخيرةُ بكلّ المصاريف.. واتّفقْنا على توحيد كُلّ مُصْطلحات اللغة الكونية، وتوحيد العُملة التجارية.. كما اتّفقنا على

الدّفاع المشترك في حالة تعرُّض أيّ طرف منّا لما يتطلبُ تدخُّل الطرف الآخر»..

هذه خُلاصةُ المعاهدة بين الكوكبيْن: الأرض و"نبتُون"..

مُعاهدةٌ أوّليةٌ ستعقبُها أُخرياتٌ تشملُ مختلفَ المجالات..

انتهت إذن مُهمّتُنا الرّسمية، وبدأت احتفالاتٌ بالمناسبة في كلّ أرجاء الكوكب، وفي أقماره وتَوابعه ومحطّاته..

وأُقيمَتْ مُسابقاتٌ في كل المجالات الإبداعية، لاختيار النجوم..

وقد فازتْ في "الغناء الكامل"، المطربةُ "النبتُونية" الشهيرة: "كُوليتا"..

ونَقلتْ كلُّ التلفزيونات "النبتُونية" حفلةً كبيرةً تتغنّى فيها بالجمالِ الحيّ في الكوكبيْن.. وقدّمت أغانٍ فيها تركيزٌ على روعةِ الجمال الإنساني، وجمال كلّ الكائنات الحيّة، ولها أسطوانةٌ عنوانُها: «لا أجملَ من الحياة!».. وفي مدخل الأسطُوانة كلمةٌ منها تقول: «الحياةُ عظيمة، في الإنسان كانت أو الحيوان، أو الشجر أو الصّخْر.. هي عظيمةٌ في كلّ شيء!»..

أصبحَتْ "كُوليتا" النّجْمَةَ المحبُوبة في كل أرجاء "نبتُون"!

ووصلَتْ أصداؤُها إلى "الأرض"..

وإلى كلّ كواكب الشمس..

ورشّحها الكثيرون لأن تكُون «نجْمَةَ الشّمس»!

وأُجريتْ معها العديدُ من الحوارات الإعلامية، فأكّدت في إحداها

«أنّنا أبناءُ الحياة.. وفي هذا الظرف الانفتاحي العظيم، يتوجّبُ العملُ سويةً لتطوير مفهُوم "الغناء الكامل".. فلا يكفي أن يتضمّن الرّقص والغناء والحركات المثيرة، لا بُدّ أن يُتقنَ النّجمُ فُنون السباحة الفضائية، والرّقصاتِ الأُفُقية، وكثيراً من الرياضات والتقنيات، بحيثُ يكونُ موسوعةً لا في المعرفة فقط، بل في الأداءِ المُقْنِع الجذّاب.. فدورُ الفنّانِ في عصرنا، أكثر من السياسيين، وأحياناً من العُلماء.. فعلى كلّ فنّان أن يُطوّرَ نفْسَه لا للوصول إلى قلوب الناس، بل للبقاء فيها.. والبقاءُ لا يعني الاحتلال، بل يجبُ أن يكُون ضياءً داخليًّا من أجل انفتاح الناس على بعضهم، والانفتاح على كُلّ العوالم، بعيداً عن أيّ تعصُّبٍ للشمس.. فالشمسُ ليست مُستقلّةً عن شقيقاتها في الكون.. إنها هي وأخواتُها من مَصْدَرٍ واحد.. وفي هذا التّوَحُّد، تكبُرُ رسالة الفنّان الذي عليه أن يتجنّبَ مُنْزَلَقاتِ الماضي.. فالخطأُ الجسيمُ الذي اقترفهُ الفنُّ عبر العصُور، سواءٌ في الأرض، أو "نبتُون" أو غيرهما، هو تمكينُ بعض الوُصُوليين من السّياسيين وغيرهم، من استغلال ثغراتٍ فنّية لاحتلالِ قلوب الناس.. وعلينا في هذا العصر، أن نقُومَ بواجبنا الفنّي في مُخاطبة القلوب!».

هكذا تُفكّرُ الفنانةُ "النبتُونية" الكبيرة: "كُوليتا"..

❐ دعوتُ "سُونا" إلى غُرفتي..

وفي الطريق إلى الغُرفة بدأنا التّشاوُر..

ـ هل تذكُرين أنّنا خطّطْنا لطلب "اللّجُوء السياسي" ؟!

ابتسمَتْ "سُونا" : «أجل.. قدِمْنا وكلُّنا شوقٌ للبقاء في "نبتُون".. ثم فوجئنا بدورية الجمارك وهي تعتبرُنا زواراً غير مرغوب فيهم.. وتطوّرت الأحداث، فصرتَ أنت مُمثّلاً لكوكب "الأرض" في حوارها الرسمي مع "دولة نبتُون"، وأصبحتُ أنا مكلّفةً بمهمّة سرّية إلى رئيسة هذه الدولة.. وانتهى بنا المطافُ إلى أن تحقّقَ لنا كلُّ شيء.. فهل تُريدُ أن نبقى هُنا؟»..

ـ لستُ أدري يا "سُونا".. فماذا تُفضّلين؟

قالت: «نعُودُ إلى أرضنا.. فمن يُفرّطُ في سخونة الأرض؟ وحميمية الأرض؟ وشمس الأرض؟ وبنات وأبناء الأرض؟ أنا عائدةٌ لا محالة!»..

ـ مع من؟ وإلى من؟

ابتسمت "سُونا": «عائدةٌ مع المجنُون.. إلى موطن من جنُّنني!»..

ـ ومن جنَّنك؟

قالت: «هو المجنُون!»..

ووضَعنا يداً في يد..

ورافقتْني إلى أن وصلنا لباب الغُرفة.. دعوتُها للدخول، فاعتذرَتْ..

قلتُ: «ادخُلي لكي نتكلّم!»..

أجابتْ: «لقد قُلْنا كلّ شيء!»..

ثم انصرفتْ إلى غُرفتها..

كنتُ أريدُها معي.. لكن هي هكذا، سمكة تفلتُ كلّما حسبتُها في يديّ!

فقَدَ الدخولُ إلى الغُرفة مُتْعتَه.. فما أن دخلتُ حتى اندفعتُ إلى الخارج..

قفزتُ من غُرفتي في الهواء الطلق، وقد حوّلتُ بذلتي إلى طائر يُحلّقُ بجناحيْه..

صرْتُ أُرَفْرِفُ في الأجواء، وأتأمّلُ أضواءَ المدينة.. فما أجملَ أن يطير الإنسانُ بجناحيْ بذلة الفضاء!

لم يطُل تحليقي في سماء المدينة، فسُرعان ما قرّرتُ الهبوط..

وفي الشارع، حوّلتُ بذلتي إلى درّاجة.. فبدأتُ أتَزَحْلقُ بها على رصيف المُتزَحلقين والمتزحلقات..

ولفت انتباهي روبوتٌ مُتسوّل..

عجبًا! هل وصلَتْ عادةُ التّسوُّل إلى الإنسان الآلي؟ ومن أوصلها؟ وما الفائدة؟

توقّفتُ عنده..

خاطبَني وكأنّهُ يعرفُني: «أنتَ "لُقْمَان".. أعرفُكَ من نظراتك.. وساقرأُ أذُنكَ إذا تصدّقتَ بشيء من متاع الدنيا!»..

أخرجتُ من جيْبي بطاقتي المغناطيسية الأرضية.. بطاقةً بنكيةً يمكن استخدامُها في أيّ مكان من كواكب المجموعة الشمسية..

هي مـقـبـولةٌ لدى الأبناك والفنادق والطائرات والقطارات وكلّ القطاعات التجارية..

أدخلتُـها في رأسِ الرّوبوت، فـابتـسمَ: «كم تُريدني أن أخـصمَ من حسابك؟»..

أجبتُ: «ما تشاء!»..

قال: «رصيدُك مُتواضع.. فهل أنتَ مُبذّر؟ أم من المستضعَفين؟»..

ـ بل من القَنُوعين!»..

نظر في عينيّ وقال: «وإذن، أنا أتصدّقُ عليك.. فابْشِرْ يا فقير! رصيدُك البنكي قد تضاعَف!»..

عجبتُ لأمر هذا الرُّوبوت.. يطلبُ الصدقة، وفي نفس الوقت هو يتصدّق!

ـ نحنُ هكذا أيُّها الأرضي!

إنه الرّوبوتُ يقـولُ هذا، ثم يُضـيـف: «نأخـذُ ونُعطي.. ونحنُ الرُّوبُوتُ، بسلوك الأخـذ والعطاء، مُنتـشـرون في كل شـوارع "دولة نبتُون".. ولذلك تجدُ المارّة يقفُون عندنا.. فمنهم من يُعطي، ومنهم من يأخُـذ.. والمارّةُ هُنا يتـوقّفُـون عندي.. ويُنْصـتُـون إليّ.. فـهل أنت على استعداد لأن تسمع؟»..

ـ نعم.. أسمعُك..

قال: «أنا رئيسُ المنظمة الرّوبوتية.. بالأموال التي أتلقّاها من المارّة يتمكنُ صندوقُ المنظمة من مُعالجة أيّ روبوت في حالة مرض، أو حالة

عـجـز.. الصـنـدوقُ يُـمـوّلُ أيضـا أيَّ دفـاع عن أيّ روبوت في وضـعـيـة صـعـبـة.. إنّني هُنا لتحفـيـز مُـجتمع الرّوبوت على التـضـامُن المالي.. وليس البـشرُ وحدهـم يتصدّقُون، الرُّوبُوتُ أيضًا يتصدّقُون.. ولنا في أخلاقياتنا الاجتماعية بنْدٌ ينصُّ على ضـرورة مُساعدة ضيـوف البلد، إذا كانوا من شاكلتك.. فهل ما زلْتَ تسمعُني؟»..

ـ أسمعُك..

ـ وإذن، اسْمعْني جيّدًا يا "لُقْمَان" ! سأقرأُ أُذُنَك.. ولا تستغرب ! فـعندكم تقـرأون الكفّ، ولكن عندنا نقـرأ الأذُن، وأحـيـانًا نقـرأ العيُون.. اقتربْ منّي يا "لُقْمَان".. اقتربْ بأُذُنك.. أنتَ لا تسمعُ إلا ما تُريدُ أن تسمع.. فتعلّمْ أن تسمع غيرَك.. عندما تتعلمُ سماع ما لا يُرضـيك، سـتُـحـقّقُ لنفـسك التـوازُن بين القَـبُـول والرّفض.. وبهـذا ستكونُ أهلاً للتّواصُل بين الكواكب.. وستكونُ مُحايدًا في اختـيـار شـريكة حياتك.. هل فـهـمتَ يا "لُقْمَان"؟ إنك لن تفُوز بها إلا عبرَ التوازُن بين "لا" و"نَعَمْ".. فتعلّمْ يا "لُقْمَان" ألاّ تقول "نَعَمْ" وأنتَ بها تقـصـدُ "لا".. فكثـيـرٌ منكم معـشـر الأرضـيين لا يرفـضُـون لك طلبًا، ولكن بالكلام فقط.. فتراهُم عندما تسألُهم يُردّدون لك "نَعَمْ"، وهم في الحـقـيـقـة يقـصـدُون "لا".. ولكي يكونَ كلامي أوضح، عليك أن تُتقن لُغةَ الأحاسيس التي تفْهمُها "سُونا".. هي في مُنتهى التوازُن.. ولن تقـبّـلك إذا كنتَ في سـلوكـاتك تخلطُ بين "لا" و"نَعَمْ".. هل فهمتَ؟»..

أجبتُ: "نَعَمْ"..

ضحك الرُّوبوت: «والله ما فهمْتَ شيئًا.. أنت تقولُ "نَعَمْ"، ومثْل غيرك تقصدُ "لا".. إنّكَ لا تقولُ "لا"، ولكنْ في كلّ "نَعَمْ" أنتَ كذّاب! إنك مثْلهم كذّاب.. مثل جدّكَ كذّاب.. في جيّناتكَ فيروسٌ نفساني مُتوارَث.. فيروسٌ لم تُفكّر في مُكافحته على وجه الأرض.. وما دُمتَ بعيدًا عن ذلك الكوكب، فاستغلّ فُرصة وجودك في "نبتُون".. أكيدًا ستتغلّبُ هُنا على نفسك.. فوداعًا يا "لُقْمَان"! وداعًا أيُّها الكذّاب!»..

كنتُ أتصبّبُ من العرق..

هذا الرّبوت ينعتُني بالكذّاب.. فهل أنا كذّاب؟

حملتُ السؤال إلى "سُونا": «هل أنا كذّاب؟»..

قالت: «حتّى أنا كذّابة.. فما العيبُ في ذلك؟»..

ـ أوّه! ما العيبُ في ذلك؟

قالت "سُونا": «ألم نُخطّطْ، أنتَ وأنا، لطلب اللجوء السياسي من "دولة نبتُون"؟ إنّنا بذلك نربطُ مصيرَنا بالسياسة.. والسياسةُ ما هي إلاّ كذبٌ في كذب.. فهل رأيت سياسيًا لا يكذب؟»..

لم أدْرِ بِمَ أُجيب.. فهذا في نظري كذبٌ مشروع: «أجل يا "سُونا".. هذا كذبٌ مشروع.. وهو في حدّ ذاته ليس كذبًا، بل تحايُلٌ على الخصوم.. فالسياسةُ لُعبة.. واللُّعبةُ خداعٌ مُتبادل!»..

قالت "سُونا": «هذا هو خنْدقُنا يا صديقي!»..

ـ صديقُك ؟

قالت : «نعم.. وهل أنتَ غيرُ صديقي ؟»..

ـ أحسبُني أكثر من ذلك يا " سُونا" .. وبتعبير أوضح : أحسبُكِ أكثر من صديقة !

ابتسمَت "سُونا" : «لحدّ الآن، لم تُبَرْهِنْ عن أنكَ أكثرُ من صديق.. ولعلّك تفعلُ في وقت لاحق !»..

ـ وما العملُ يا "سُونا" لإقناعك ؟

أجابت : «خُذْ هذه الصداقة، وضعْها تحت أضواء الشمس.. حاولْ أن تكتشفَ مَواطنَ اللاّتَناسُق بين ألوانها.. وعندما تكتشفُ الخلل، حاولْ أن تُعالجَه بالأضواء.. إن الضوء أداةٌ في أيدي الموهوبين.. يتحوّلُ إلى ألوان في فُرشاة الفنّان.. وهذا الضوءُ يأتي من الشمس، ويدخلُ إلى بعض القلوب، ومنها يخرجُ كي يتسلّلَ إلى القلوب المعشُوقة.. فهل في قلبك هذا الضّياء؟ أتمنّى أن تفهَمني يا "لُقْمَان" !»..

ثم سكتَتْ "سُونا"..

ـ يا إلهي ما العمل ؟

هذه البنتُ تُجنّنني.. تتكلمُ لُغةً أنا أجهلُها.. ولا أفْهمُها : «أنا لا أفهمُ كلامك يا "سُونا" ، ولكنّني أفهمُ قلبي.. أعرفُ أنّني في قبضتك.. فما شأني والأضواء والألوان ؟ أنا أتكلم لُغة القلب.. فهل في الكون أنبلُ من المشاعر ؟ وهل في الكون سلاحٌ أقوى من صدق

المشاعر ؟ إنّنا لن ننجح في أية مهمة، مهما كانت بسيطة، إلا بالأحاسيس الصادقة.. وبهذه الأحاسيس النابضة، نستطيعُ أن نُواجه "سِرْبَ النّيازك" التي سمعْنا أنها آتيةٌ لصدْم "نبتُون".. فلماذا أنتِ هكذا يا "سُونا" ؟ لماذا تتعاملين معي وكأنكِ مدفوعةٌ إلى تجريحي من ذلك الرُّوبُوت؟ فبصراحة: الرُّوبُوتُ كذّاب، وابنُ كذّاب، وحفيدُ الكذّابين!»..

بلغتُ قمةَ الغضب..

لم تسمعْني "سُونا"..

فقد انسحبتْ راكضةً في الشارع..

وخطر ببالي أن أركُض خلفَها، ولكن الكبرياءَ منَعَني.. ووالله لن أتْبعَها.. فمن تحسبُ نفسَها؟ هي مغرورة.. مُعتدّةٌ بنفسها.. وأراها كالبِبْغاء تُردّدُ ما يتَبجَّحُ بهِ ذلك الرُّوبُوتُ المتسوّل..

ـ اللعنةُ على الرُّوبُوت!

عيْنُه تُخفي سرّاً.. هو لا شكّ يحملُ لُغزاً في شارع التّسوُّل..

وهو الآخرُ يحسبُ نفسَهُ من؟ إنه في مُنتهى العجْرَفة.. في أوْجِ التكبُّر.. وبكلّ وقاحةٍ يتّهمُ أسيادَه بالكذب، وهو أصلاً من سلالة الحديد!

وقد يبلغُ به الغُرُورُ أنْ يزعُمَ غداً أو بعد غد، أنهُ قد تقمّصَ شخصية المرأة، وأنه حاملٌ بطفلٍ آدمي!

وقد يشتدُّ به اللاّأدب، فيجدَ مُبرّراً للديماغوجية التي يمارسها على

الرصيف، ويزعُم أيضًا أن أعصابهُ تتوتّرُ في ليالي اكتمال أكبرِ أقمار "نبتُون" .. وقد يزعُم أنه مُبتكرُ الساعة " النبتُونية" .. الساعة التي تُؤشّرُ للتّوقيت، ومواقع النّجوم، والبُعد عن الأرض، وأيضًا لتوقيت "العادة الشهرية" لدى الغاضبين والمغضوب عليهم.. أفٌ منكَ أيها الوغْد!

لا تواخذُوني، فأنا في مُنتهَى الغضب..

فعَلتْها تلك المُهَرْوِلَة!

فعلتْها تلك الكاسِحة!

اكتسحتْ مشاعري، ثم داستْها وركضَت وكأنها تُطاردُ نفسَها!

في هذه اللحظة أتذكّرُ بطاقتي الأرضية.. لقد نسيتُها عند ذلك المعدني المتسوّل.. أخذتُ الاتجاهَ المعاكس، وعُدتُ إلى مكانه، بيْد أنه ليس هُنا.. الرُّوبُوتُ اختفى من عين المكان.. سألتُ أحد المارّة: «خبّرْني من فضلك، أين ذهب المتسوّل؟»..

أجاب: «هو في "شارع الطبّالين".. هُناك إلى يمين "دار النّاعسات"..

قصدتُ إلى عين المكان..

لم يكُن الرّوبوتُ هناك..

اختفَى عن الأنظار.. اختفى ومعهُ اختفَت أيضًا بطاقتي التي تُمكّنُني من أن أبيع وأشتري هُنا وهناك..

سألتُ عنه في شوارع المدينة، دون جدوى..

سألتُ عنه في السّطُوح، دون جدوى..

وخطرَت ببالي فكرةُ أن أُخبر أقرب مُؤسّسة بنكية..

قالت حارسةُ البنك: «بطاقتُك كانت هُنا منذ قليل.. تقدّم بها الرُّوبُوتُ المتسوّل فسَحَبَ من رصيدِكَ الأرضي كلّ ما تملك.. ألم تتبرّع برصيدك للمُنظة الرّوبوتية؟»..

ـ لا يا سيدتي..

ـ وإذن، فهو عدوُّ المجتمع!

ضغطَتْ على الزّرّ، فأُطلقت صفّارةُ الإنذار.. وتكلّمت الحارسةُ في ميكرُوفون شَعْرِها: «المطلوبُ من الطائرات الأمنية أن تبحث عن رئيس المنظمة الرّوبوتية.. كان يتسوّلُ في الشارع، فاستولى على بطاقة آدميّ أرضي!»..

قلتُ في نفسي: «ربّما لم يتعمّد الاختفاء بالبطاقة.. فماذا يؤكدُ أنه مارس العُدوان على المجتمع؟»..

وقالت لي الحارسة: «اذْهَب إلى الفُندق حيثُ تُقيم، وأكيداً ستصلُك البطاقة، ويعودُ إليك رصيدُك الأرضي.. وإذا تأكدَ لنا أن الفاعل قد فعلها بسُوء نيّة، فجزاؤُهُ المؤكّدُ هو التّفكيك.. سيتمُّ إلغاءُ وجوده في الساحة العامة، فيكونَ بذلك عبرة لكل الرُّوبوت المنتشرين في شوارع المدينة»..

التفتَت الحارسةُ إلى زميلٍ لها في العمل، وقالت له: «يجبُ أن نُفكّر جدّيًّا في شنّ حملة تجميع لكُلّ الروبوت الضّالّين في الشوارع،

والتائهين في الفيافي والقفار.. إنهم يُزعجون الناس إزعاجًا مُضرًا بسُمعتنا في كواكب الشمس.. ففيهم من يقرأ الأذُن، ومن يمْتَهنُ التّدجيل والشّعوذَة، ويزعمُ القدرة على تطويع الأشباح، وفيهم من يتسوّل، ومن ينسرق، ومن يمارس النّصبَ والاحتيال.. وفيهم وفيهم... هذه الظاهرةُ يجبُ أن تُكافَحَ قبل فوات الأوان!»..

شكرتُ الموظفة، وركبْتُ القطارَ المتّجهَ إلى الفُندُق..

دخلتُ غُرفتي وأنا في حالة نفسية مُتوتّرة..

وما أحوجني إلى من يُمكن أن يمتصَّ غضبي من "سُونا"!

وعلى هذا الرُّوبوت أن يمتصَّ الغضب.. عليه أصُبُّ جامَّ الغضَب..

ولكن أخشى أن أتحوّلَ من مُشتكٍ إلى ظالم!

ـ آهٍ منكِ يا "سُونا"!

وأحاولُ النّسيان..

أفتحُ التّلفاز الشمسي.. فيه مئاتُ الآلاف من القنوات الثّلاثية الأبعاد..

فتحتُ إحداها.. هذه مُذيعةٌ أرضيةٌ تفوحُ منها عطورُ بلَدي.. ياه! لكم أشتاقُ إلى بلدي!

تقولُ في نشْرتها الإخبارية: «رسالةٌ بعثَت بها "تِيتَا"، رئيسةُ "دولة نبتُون"، إلى "كبير الأرض"، وفيها تأكيدٌ على اعتزامها زيارة الأرض زيارة رسمية لتبديد سحابة الصيف الماضية، وتوطيد العلاقات الثنائية»..

وتُضيفُ الرسالة: «... وبالمناسبة، تدعو رئيسةُ "دولة نبتُون" إلى عقد قمّة شمسية، في مكان سيتمُّ اختيارُه فيما بعد، ويُحتملُ أن يكونَ "المرّيخ"، لتدارُس الملفّات المطروحة بين كواكب المجموعة الشمسية، وعلى رأسها الإشكالية الأمنية، بعد أن كثُرت عصاباتٌ تركبُ المُذنّبات وتحتلُّ الجُزُرَ الفضائية.. هذه العصاباتُ يجبُ التصدّي لها، وبلا هوادة!»..

انتهت رسالةُ "نبتُون"..

وظهر على الشاشة "كبير الأرض"، فأشاد بالرئيسة "تيتا"، وقال: «ننتظرُ بشغَف زيارتَها الأرضية.. ومن جانبنا نُثمّنُ دعوتَها إلى قمة الشمس.. ففعلاً هُناك عدةُ قضايا تشغلُ بالَنا وبال كل إخوتنا في كواكب الأسرة الشمسية.. ونحنُ أيضا قلقُون من ظاهرة انتشار العصابات في فضاءاتنا الكوكبية.. فهذه العصاباتُ تمتلكُ وسائلَ تدميرية هائلة، وبها تُهددُ التوازُنات الكونية.. المطلوبُ اتخاذُ موقف مُوحّد لمواجهة هذه المخاطر»..

❐ تلقّيتُ أمراً بالعودة إلى الأرض..

تقول رسالةُ الأرض: «قبل ذلك يا "لُقْمَان"، توَجّهْ إلى "واحة المخادعين"، وقُمْ بإفراغ المركبة الأرضية من حمُولتها الغذائية، وسلّمْ هذه الحمولة هديةً منّا إلى "دولة نبتُون".. لقد أخبَرْنا كلَّ أفراد الطاقم، وكلَّ المسافرين.. وإذا كان في المسافرين من يُفضلُ البقاء في

"نبتُون"، فهذا شأنه.. علمًا بأنّ علاقاتنا التواصُلية قد عادتْ إلى مجْراها الطبيعي، ولم يعُد أحدٌ من الأرضيين بحاجة إلى تأشيرة.. يُمكنُه أن يستقرّ هناك، بدون أية تأشيرة.. وإذا كان هناك "نبتُونيون" يُريدُون السّفر معكم إلى الأرض، فأهلاً بهم.. وقبل كلّ هذا، عليك بالتوجُّه فوراً إلى الرئيسة "تِيتَا" لتجديد تحياتنا الأرضية.. وإلى اللقاء!»..

لم يعُد هناك مُتّسعٌ من الوقت..

أخذتُ القطار إلى رئاسة "دولة نبتُون"..

استقبلتْني الرئيسة "تِيتَا" بحفاوة، وسلّمتْني رسالتيْن: «الأولى مُوجّهةٌ إلى "كبير الأرض".. يجبُ أن تُسلّمها إليه يداً بيَد.. أما الرسالة الثانية، فسلّمْها إلى زعيم "واحة المخادعين".. وهذا من أجل مصالحنا المشتركة.. وشكراً!»..

ودّعتُ الرئيسة "تِيتَا"، ورافقتْني مُضيفةٌ إلى الباب.. وقبل الخروج سلّمتْني ظرفًا..

في الظرف بطاقتي البنكية..

ومعها "كشفُ حساب" يُفيدُ أن رصيدي الأرضي قد أُعيد إلى ما كان عليه..

كما ورد في الكشف: «الرّوبوتُ المتسوّلُ لم يفعلْها مُتعمّدًا.. كان مُصابًا بأعراض جنُونية، فصار يهذي ويتصرفُ بطريقة غير سليمة.. وقد تمّ نقلُه إلى العيادة.. ومن جهتنا، نتقدمُ إليك بكامل الاعتذار،

ولتأكيد هذا الاعتذار نُضاعفُ رصيدك الأرضي، وفقًا لما اكتشفْناهُ في دماغ الرّوبُوت الذي نتمنَّى أن يستأنفَ نشاطَهُ "التّوسُّلي" ، خدمةً للمُجتمع الرّوبوتي»..

في المطار كان كلُّ أعضاء الوفد الأرضي..

تحاشيتُ النظر إلى "سُونا"..

هي أيضا كانتْ تنظرُ إليّ بطرف عينْ..

العلاقةُ بينَنا لم تعُدْ على ما يُرام..

أقلعَت الطائرة..

□ نحن في الأجواء..

راكبةٌ بجانبي تسألُني: «هل سمعتَ آخرَ الأخبار؟»..

ـ لا.. فما الجديد؟

قالتْ: «الحكومةُ العلميةُ لكوكب "الزّهرة" تدعُو إلى مؤتمر شمسي عاجل، لاتّخاذ إجراءاتٍ فعّالة، لمنع اصطدام مُحتمل بين كوكب "بلُوتُو" وكوكب "المرّيخ".. فقد تبيّن من دراسة حديثة أن مداريْ الكوكبيْن يتّجهان إلى إحداث اصطدام مُستقبلي بين الكوكبيْن!»..

أذهلني الخبر: «هل الدراسة الحديثة تعتمدُ مُعطيات مُدقّقة؟ أم إن الأمر مُجردُ احتمال هادف للإثارة؟»..

قالتْ: «المسألة تبدُو جدّية هذه المرّة.. وعلى كل حال، من حقّ

الحياة أن تجد في مسؤولي هذه الكواكب حُماةً لها.. فيجبُ أخذُ المسألة مأخذَ الجدّ، حتى ولو كان الخبرُ مُجرد كلام»..

قلتُ: «معكِ الحقّ يا سيدتي.. فالمسألةُ ليستْ معرفة ما إذا كانت الدراسةُ صحيحة أم لا، بل هي ضرورة العمل الجدّي لمواجهة خطورة من شاكلة الاصطدام.. فيجبُ أن تكون عندنا آلياتٌ قادرة على تجنيب الحياة أيةَ اصطداماتٍ كوكبية»..

وصلْنا إلى "واحة المخادعين"..

أُسلّمُ لزعيمها رسالة "تيتَا"، رئيسة "دولة نبتُون"..

يقرأُها ويُصدر الأوامرَ بإفراغ المركبة من كل الحمولة التي جئنا بها..

فانطلقَ جيشٌ من الرُّوبُوت "الحمّالَة".. بدأوا يُخرجُون الأكياس من المركبة الجاثمة على أرضية المطار في شكل طائرة.. ويضعون هذه الأكياس في قطار البضائع..

وبينما التّفريغُ مُتواصل، اقتربَ منّي زعيمُ "واحة المخادعين" وقال إنه يُريدُ أن يُحدّثني في أمر مُهمّ: «ولكن ليس هُنا يا صديقي الأرضي، بل عندما آتي إلى الأرض.. سأكونُ ضمن الوفد الرسمي الذي سيُرافقُ "تيتَا"، رئيسة "دولة نبتُون".. هذا لا شكّ فيه، باعتباري من كبار المسؤولين "النبتُونين".. وبصراحة: أفكّرُ في مشرُوع استثماري كبير.. والتفاصيل سأبحثُها معك في مُستقبلٍ أتمنّاهُ قريبًا!»..

قلتُ: «إنك تُثيرُ شغفي لمعرفة هذا المشروع، ولو في صيغته

العمومية»..

ضحك الزعيم: «أنتم هكذا يا آلَ الأرض.. فضوليُون لأقصى الحدود.. ولن أحرم فضولَك من بعض التوضيحات»..

في هذه اللحظة تقدّمَ منه رئيسُ "الحمّالَة"، فسأله: «ما العمل؟ لقد أفرغْنا كلّ الصناديق.. فهل ننصرف؟»..

ـ لا.. لا.. ابدأُوا عملية الشحن!

والتَفَتَ إليّ الزعيم: «تلك هديةٌ رسميةٌ من "تِيتَا"، رئيسة "دولة نبتُون"، إلى المؤسّسات الطبية والصّيدلية في كوكب الأرض.. هي من أهمّ الصخُور المعدنية.. إنها تشفي من أخطر الأمراض، ففيها موادٌ تدخلُ في صناعة أدوية أمراضٍ فتّاكة»..

وسلّمني ملفًّا عن أهمية هذه الصخور: «اقرأها عندما يكونُ لديك مُتّسعٌ من الوقت!»..

ـ شكرًا جزيلا..

ابتسم الزعيمُ وقال: «العُمّالُ الرّوبوتيون يقومون بإدخال الصخور الثمينة في مُعلّبات خاصة إلى مستودع المركبة.. إنها صخورٌ ثمينة جدًّا.. ونعودُ إلى المشروع الاستثماري الذي أفكّرُ فيه.. وفضولُك ما زال يُلحُّ عليك في أن تعرف.. وساختصر الفكرة: إن الأمر يتعلقُ بالاستثمار في السحاب»..

ـ السحاب؟!

ضحكتْ ضحكةً سمعَها بعضُ الرّوبوت الذين التفتُوا فنهرَهُم

الزعيم: «واصلُوا عملكُم!»..

وقال: «سحابُكم غنيّ بعناصر لا وجود لها عندنا.. فماذا لو نجحْنا في وضع سحابةٍ في قارُورة؟! فكّرْ في المشروع.. فبهذا نستطيعُ أن نبيع السُّحُبَ الموسمية سحابةً سحابة، بحيث أن كلَّ قارُورة ستضُمُّ سحابةً كاملة.. فكّرْ جيّداً.. إنها ثروةٌ لا عدَّ لها ولا حصْر.. والتفاصيل سنبحثُها معًا في كوكب الأرض!»..

حيّرَني الزعيمُ بهذه الفكرة..

وصعدتُ إلى مقصورة القيادة وأنا مشغولُ البال بإمكانية شحن سحابةٍ كاملة في زُجاجة عطر!

لا شكَّ أنّ السحابَ عندنا ثروةٌ وأيةٌ ثروة..

ومن هذه الثروة، لا نستغلُّ إلا جُزءاً بسيطا، وهو بعضُ الأمطار التي تسقطُ علينا في أوقات موسمية.. نستفيدُ من بعض التّساقُطات، بينما الأمطارُ الأخرى تذهبُ إلى البحر..

ـ فماذا لو قُمنا بتصدير البحر؟ أليس البحرُ تجميعًا لكل الثروات السائلة؟

إنّني هذه المرة أهذي.. فإذا فكّرْنا فعلا في إفراغ البحر، فهذا سيعني اغتيالَ كوكب الأرض، والقضاء على كلّ مظاهر الحياة فيها..

وتذكرتُ السّيناريو الذي أعدّهُ مجموعةٌ من مُتطرّفي النُّجوم.. لهُم نظريةٌ يخططُون بها لإخراج الكُرة الأرضية من مدارها الطبيعي.. وهذه تُفيدُ أن إفراغ البحر من مياهه، سيُؤدي حتما إلى انفلات هذا

الكوكب من مداره الحالي حول الشمس..

وهذا يعني موت الأرض!

ـ ولا يُفكّرُ في موت الأرض إلا ميّتُ القلب!

□ تحركت المركبة على مُدرّج المطار..

وفي الأجواء "دوريةُ الجمارك" تُحيّينا بإطلاق الأضواء..

وموكبٌ من الطائرات "النبتُونية" يُرافقُنا إلى حدود الكوكب الرّبيعي..

ولدى وصُولنا إلى آخر محطة حُدودية، أطلقتُ من جهتي أضواءَ "تحيّة الوداع"، فشُوهدتْ حولَ المركَبَة مُفرقعاتٌ تُشكّلُ في الأجواء وُرُوداً مُضيئة تشبهُ ورودَ الأعراس..

ثم قُمتُ بإشعال الصواريخ الخلفية للزيادة في السُّرعة..

وغاصتْ مركبتُنا في أغوار الرحلة الطويلة باتّجاه كوكب الأرض..

وأخذتُ الميكروفون للحديث إلى الرُّكاب: «أهلاً بكم من جديد معشر أخواتنا وإخواننا الأرضيين.. أتمنّى أن يكون كلُّ واحد منكم قد أمضى أيّامًا مُريحة في "دولة نبتُون".. أشكرُ أعضاء الوفد الذي شاركَ في الحوار مع المسؤولين "النبتُونيين".. وأؤكّد أن رحلتنا كانت ناجحة، وأنّ آفاقًا جديدة قد انفتحت أمامنا نحنُ الأرضيين من خلال التعاوُن مع أشقائنا "النبتُونيين".. وأُخبرُكم أنّ لقاءات موسّعة ستنعقدُ لدى وصولنا إلى كوكبنا الأرضي، في مؤسسات مختصّة، وبحضور عُلماء الاجتماع،

لاستجوابنا حول حصيلة الرحلة، وخاصة منها الأوراش التي شاركَ فيها كلُّ فريق من فِرَقِنا العشرة التي شكّلناها.. وفي ضوء هذه الاستجوابات سيتسنَّى إعدادُ تصوُّر للعلاقات الاجتماعية المستقبلية، كما سيبحثُ ذوُو التّخصُّصات الأخرى عندنا في آفاق تطوير تخصُّصاتهم لتنسجم وتطلُّعاتنا إلى تعاوُن أمتن مع إخواننا "النبتُونيين"».

انتهى الكلام..

والمركبة تشُقُّ الفضاء في رحلة العودة..

وبين الحين والآخر أراقبُ الآليات الرئيسية المُثْبَتة في لوحة القيادة، لضبطها والتأكُّد من برمجيات الرحلة، ففي مثل هذه الرّحلات المعقّدة، لا يُعتمدُ على القيادة الآلية، بل يجبُ على الإنسان أن يتأكد بنفسه، حتى لا تتعرض برامجُ الرحلة لأيّ اختراق، سواءٌ من داخل المركبة أو من خارجها!

فتحتُ الملف الذي سلّمني زعيمُ "واحة المخادعين" لتفحُّصه وتأمُّله، فأذهلَني أمران: الأول هو اكتشافُ أهمية الصخور "النبتُونية" في العلاجات، والثاني اكتشافُ طريقةٍ مضبوطة لاستغلالها من أجل العلاج..

وقرأتُ في الملفّ ما يلي:

«هذه الصخورُ لم تُستخرج من باطن "نبتُون" بل صُنعت من الغُبار الكوني المتناثر على سطحه، وخاصة منه المنتمي إلى نوع

من المذنّبات التي يُسميها "النبتُونيون" بالمذنّبات التائهة.. لماذا تائهة؟ لأنها تمرُّ من الفضاءات "النبتُونية" في حياتها مرة واحدة فقط.. وهي مُذنّبات مجهولةُ المصدر.. وعكس المذنبات التي تحملُ هُوية معروفة، لا تصطدمُ بأيّ كوكب، ولا تضربُ أي قمر، وبتعبير آخر: لا تعتدي على أحد.. تشقُّ الفضاء قادمة من المجهول، وراحلة إلى المجهول.. هذه أثارت انتباه العُلماء، فبدأوا يهتمّون بها.. وفي هذا السياق، وبعد قُرون من المتابعة، وقرون من الملاحقات المُضنية، تمكّنتْ فرقةٌ فضائية مختصة من اعتراض إحداها ثم قطع ذنَبها الغازي، وبعد ذلك تحويل اتّجاه كُتلتها المتجمّدة إلى مصْيَدة مكّنت الباحثين من اكتشاف عناصر متعدّدة قادرة على شفاء الكائن الحيّ، أينما كان، من جُلّ الأمراض التي يمكنُ أن يتعرّض لها.. ومن هنا بدأ التفكيرُ في تقسيم هذا النوع من المذنّبات التائهة إلى قطع صغيرة يمكنُ بها شفاءُ المرضى في ربوع كواكب المجموعة الشمسية.. هانتُم تلاحظون أن الكون فيه الدّاء، ولكن معهُ يوجدُ الدواء.. وهذه نظريةٌ قديمةٌ تداولها الناسُ في شكل أساطير، وأيضا في شكل أبحاث، ولكنها هذه المرة أوصلت الباحثين إلى طريقة بسيطة للعلاج.. ما هي هذه الطريقة؟ إنها وضعُ الصخرة في ساحة عمومية حيثُ الناسُ يتماشون جيئةً وذهابًا.. الصخرةُ تبثُّ إليهم أشعةً وعطورًا علاجية.. والعلاجُ يبدأ نفسانيًا، ويتطوّرُ إلى علاج

الجسم.. هذا تطوُّرٌ كبير في الحقول الطبيّة الصّيدلية!»..

طويتُ الملف..

المركبة في أغوار الفضاء..

□ "سُونا" ليست معي..

هي هناك، مع الرُّكّاب.. ولن أُناديها.. فحتى أنا غاضب..

لماذا أنا غاضبٌ منها؟

ببساطة: «غاضبٌ لأنها غاضبةٌ بلا سبب!»..

وأفتحُ مذياع المركبة.. هو مذياعٌ آلي يُسيّرُه أشخاصٌ آليون.. ففي المركبة كثيرٌ من الروبوت الأقزام.. وهم مُصطفُّون على الجُدران، يُشكّلُون في التحامهم التّامّ جداراً سميكًا يزيدُ في حماية المركبة.. وهم أيضا تحت المقاعد، ومُلتصقُون بالمقاعد، وفي ممرّات المركبة، وداخل مُستودعها، وحتى في الهيكل الخارجي للمركبة..

فيهم الأطباء والمهندسُون والإعلاميون والأساتذةُ والعسكريون والمستخدمون..

ـ والفضُوليون!

آلافُ الروبوت مُتمركزون في أمكنة مختلفة من المركبة، وأغلبُهم في حالة نوم، ولكن ما أنْ تطلُب خدمة من الخدمات، حتى يقفز من مكانه كلُّ من يمكن أن يُقدّم هذه الخدمة.. وإذا كانت الخدمةُ تتطلّبُ الكثير من الروبوتين، فإنهم ينتصبُون واقفين هنا وهناك، على استعداد..

ولكل فريق تخصُّصٌ ورئيس..

ها هو الإنسانُ قد وضع مصيرَهُ في قبضة آليين مُنظمين!

وفي هؤلاء الروبوت من يقُومون ببرمجة المذياع الآلي على كل الخدمات الصوتية..

طلبتُ من المذياع أغنية للمُطربة "النبتُونية" الشهيرة..

وانطلقت "كُوليتَا" تُغنّي..

تُغنّي وترقُص رقصة النّجوم.. ومن شاشة المذياع تدعوني إلى الرّقص.. أقولُ لها: «أنا لا أعرفُ الرّقص.. قالت: «ارقُصْ بالكلمات.. ألا ترقُصُ بالكلمات؟ ألا تعرفُ الكلمات المتراقصة؟»..

ضحكتُ مع "كُوليتَا"..

وضحكتْ حتى وهي مُجردُ صورة مُتحرّكة في أسطوانة المذياع..

ضحكتْ وضحكْنا معًا..

❐ ... وفجأةً، يقتحمُ صوتٌ غريبٌ أجواءَ المركبة..

صوتٌ مبحُوحٌ يُعلن: «أنا "الأصلح".. اسمي مُشتَقٌّ من مَثَلِكُم الأرضي القائل إنّ "البقاءَ للإصلح".. وأنا هذا "الأصلح".. فاستسْلمُوا بدون أية مُقاومة، وإلاّ فسأدمّرُ المركبة وأُفتّتُها أشلاءَ في السماوات»..

حسبتُ أن هذا مُجردُ تسجيل صوتي خاطئ في المذياع، لكنهُ صوتٌ حقيقي: «يا "لُقْمان"! أنا "الأصلح" فاسمعْ جيّدًا.. إنّ

"الأصلح" لا يمزح.. خفّضِ السُّرعة، وأدِرِ اتّجاهَ المركبة إلى الشمال الشرقي!.. افْعَلْ ذلك فوراً، وإلاّ أمرتُ بقصفكم.. هل تَسمعُني؟»..

رددتُ بصوت خافت: «أسمعُك.. فمن أنت؟»..

ـ أنا "الأصلح".. وأنتُم الآن في مجالي الجوي.. أنتُم في فضاءاتِ "الأصلح"، المنشقّ الصّنديد عن حُثالاتِ "دولة نبتُون"!»..

قلتُ: «وما العمل؟»..

ـ خفّضِ السُّرعة، وأدِرِ اتّجاهَ المركبة إلى الشمال الشرقي!»..

وبدأتُ تخفيض السُّرعة، والدّوَران إلى ما طَلَب، فما عليّ إلاّ التّنفيذ!

ثم قال: «اخْبِرِ الرُّكّابَ بالواقع.. قُلْ لهم إنكم واقعُون في "امبراطورية الأصلح".. وأنتم رهائنُنا من اللحظة إلى إشعار آخر.. فنفّذُوا كلَّ ما نأمُرُكم به، حتى لا تتعرّضُوا لغضَبنا.. إنكم لم تُجرّبُوا غضبَنا.. وسأوجزُهُ لكم في كلمة واحدة: هو إعصار.. غضبُنا إعصارٌ في إعصار.. فانتبهُوا!»..

وسكتَ الصّوت..

وأخذتُ الميكروفون: «أخواتي إخواني.. لا تَقْلقُوا، ولا تضْطربُوا! أكرّر: لا تَقْلقُوا، ولا تضطربُوا! إن مركبتَنا قد وقعت في قبضة "امبراطورية الأصلح".. نحنُ منذُ الآن غيرُ أحرار.. وفي مثل هذا الظرف، يتوجّبُ علينا التعامُل مع وضْعنا الصّعب، بكل رويّة وحكمة، حفاظاً على وجُودنا.. وأعلنُ لحضراتكم أن هذه الكلمة لا

تسمعُونها منّي أنتُم وحدكم، هي أيضا مسمُوعةٌ من غيرنا.. زمرةٌ أخرى: لا تَقْلقُوا، ولا تضطربُوا! هذا كلُّ ما لديّ»..

الكلُّ في المركبة يعرفُ أنَّ «لا تَقْلقُوا، ولا تضطربُوا!»، هي كلمةُ السّرّ التي تعني أن علينا أن نُخرج أسلحتَنا الدّماغية، وأيضا أسلحة العواطف!

في هذه اللحظة اندفَعتْ "سُونا" إلى مقصُورة القيادة، وهي تضحكُ وتضحك..

سألتُها: «لماذا تَضْحكين؟!»..

أجابت: «هذا يومٌ سعيد.. فنحنُ نتّجهُ إلى المكان المناسب لنا، وسنلتقي الشخصيات التي تناسبُنا.. أنا لا أعتبرُ نفْسي مُختطَفَة.. فهلاّ أطلقتَ أسطُوانةَ "كُوليتَا"؟ أريدُ أن أستمْتع بأسطوانة "بُوناجُوفْ"!»..

وأطلقتُ لها الأسطوانة..

ودعوتُها إلى جواري..

قلتُ لها: «يا حبيبتي.. لا "كُوليتَا" ستَنفعُنا، ولا أغنية "بُوناجُوفْ".. إنّنا مُختطَفُون.. فهل تعرفين معنى الاختطاف؟»..

أجابتْ: «أنا لستُ مُختطَفَة! فلطالما تمنّيتُ اللجوء السياسي إلى خارج كوكب الأرض.. وها هي الفُرصةُ مُواتية.. وإذا حصلنا، أنتَ وأنا على حق اللجوء، فسيكونُ بإمكاننا أن نعيش هُنا في أمن وأمان.. فالمؤكدُ أنّنا الآن في ضيافة امبراطورية قوية.. والإمبراطوريةُ القوية لا يمكنُ أن تكون نفسيتُها ضعيفة.. أتفهمُني يا "لُقْمَان"؟ إنك

قائدُنا، فاستغلّها فُرصةً لإنقاذنا وإنقاذ كل الرُكّاب.. أنت لم تَستقْرئ رأيَ الرُكّاب، ولم تعرف التصوُّر الحقيقي الذي أصبح لديْهم.. أنا تكلمتُ إلى الكثير منهم، وأعرفُ كيف يُفكّرُون.. فهل تعرفُ أنتَ كيف يُفكّرون؟»..

نظرتُ إليها ولم أنطقْ بكلمة.. فأضافتْ: «إنك القائل: "لا تقلقُوا، ولا تضطربُوا!"»..

ابتسمتُ وأنا أعرفُ أن "سُونا" قد بدأتْ تنفيذ خُطّة «أسلحة العواطف»..

قالت: «لاتجعَلْنا نقلقُ ونضطرب.. نحنُ هُنا من أجل اكتشاف عُقلاء الشمس.. وما دام الكثيرُ منّا غيرَ مُرتاحين للحياة على كوكب الأرض، نظراً لحالة اللاّأمن واللاّعدل هناك، فما المانعُ في أن نَقبَل، وبانشراح، ضيافةَ من يطلبُ استضافتَنا في هذا الفضاء؟ هذا رأيي يا "لُقْمَان"، ففكّرْ فيه قبل الوصُول إلى "امبراطورية الأصلح"!»..

ثم انسحبتْ "سُونا"..

وعادَتْ إلى مكانها بين الركّاب..

عادتْ دون أن تَسمعَ أغنية "بُوناجُوف"..

وأدركتُ جيّداً أنها بذلك تُطمْئنُني إلى أن خُبراءَنا المندسّين بين الرُكّاب، والذين يُتقنُون فنُون استخدام الأسلحة الدّماغية، وأسلحة العواطف، قد استعدُّوا جميعًا، كلٌّ بطريقته، في تنفيذ الخطة الدماغية العاطفية، لمواجهة الوضع الحرج»..

هذه الخُطّة تعلمناها في مدارس مُغلقة بكوكب الأرض، وفيها ثلاثُ لُغاتٍ مختلفة، وكلُّها مُشفّرة.. فإذا انفضحتْ واحدة، إما بوشاية أو لسببٍ آخر، يتمُّ استخدامُ اللغة الثانية.. ولكنَ اللغة الثالثة لا يُلجأ إليها إلا في آخر المطاف، علمًا بأن في هذه الأخيرة سرًّا دفينًا: إنها تموتُ في لسان كلّ شخص يشي بها.. الوشاية تُلجمُ لسانَ الواشي وتجعلُه عاجزًا عن التعامُل بها.. فهي لُغةٌ لا تُترجَم، ولا تُنطَق، وليست لها حروف.. هي لُغةُ الخواطر والإيحاءات وقراءة الأفكار وغير ذلك من المؤهّلات الدماغية المخلية وذاتِ المدى البعيد..

والتعامُلُ بهذه اللغة لا يكونُ إلا بمشاعر صادقة، وقلبٍ في منتهى الصفاء..

أما المخادعون، فلا يستطيعون استخدام هذه اللغة، وفهْمَها، حتى ولو كانوا في وقت سابق على دراية تامّةٍ بها..

ـ هذه لغةُ الأوقات الصعبة!

وإذن، في المركبة أشخاصٌ على أهبة التدخُّل إما بالدماغ أو العاطفة، أو هُما معًا..

وفي هؤلاء من يستطيعُون قراءة أفكار غيرهم، والرَدُّ عليها، وتوجيهَها..

بل فيهم من يستطيعُ أن يُحْدثَ تشويشًا في دماغ الخصْم، إذا كان هذا الأخيرُ يهدفُ للإساءة!

وبعضُهم يقرأون الأفكار عن بُعد..

وسنعتمدُ في البداية على قُرّاء الأفكار البعيدة، وعلى سلاح العواطف، لمحاولة الخروج بسلام من المرحلة الآنية..

المركبة تأخذُ مداراً مُنحرفًا باتجاه كُويْكِبٍ من أتباع "نبتُون"..

والصوتُ المبحُوحُ يقتحمُ مقصورة القيادة: «إنّ "الأصلح" يُحذّرُك.. فأنتَ يا "لُقْمَان" مُتحايلٌ علينا.. تتظاهرُ بالانصياع، وفي نواياكَ العكس.. فما حقيقتُك؟»..

أجبتُ: «أنا مُختطَف.. والمختطَفُ ليس حُرًّا في التّعبير عن نفسه.. لم تعُدْ لي نوايا.. أنا أسمعُ الأوامر، وأُنفّذُها.. فما أمرُك؟»..

قال: «عليك ألاّ تُبقي المركبة على حالها الراهن.. قُم فوراً بتحويلها إلى طائرة قابلة للنزول في الكُويْكِبِ الظاهرِ أمامك.. هو ليس من أتباع "نبتُون" كما تعتقد.. إنهُ كُويْكِبُ سيادةِ "الأصلح".. فهل تسمعُني؟ يجبُ أن تبدأ بالنزول في مطار "الأصلح"، بمُجرّدِ ما أُطلقُ إشارتي الصّوتية.. فانتبِهْ!»..

لم يطُل الانتظار..

فما هي إلاّ لحظات، حتى وصلَتِ الإشارة..

وبدأتُ عملية الهبوط..

وأخبرتُ الرّكّاب: «نحنُ بصدد النُّزول في مطار "الأصلح".. فلا تقلقُوا، ولا تضطربُوا! وشُكراً»..

كان عساكرُ مُتمركزين في المطار، بأسلحة صارُوخية، على أهبةِ لإطلاق النّار..

لَمَسَتْ مركبتُنا أرضيةَ المطار، وسارتْ في ممرّ طويل مُحاط بالمسلّحين..

وتوقّفتْ..

والصوتُ المبحُوحُ يعُودُ إلى المركبة: «مرحبًا بضيُوف الأرض.. لن نضُرّ بكُم كما قد يخطُرُ ببالكم، وخاصةً منكم المتحايل المسمَّى "لُقْمَان".. سنُحْسنُ ضيافتَكم، ونؤكّدُ لكم أنّنا أمةٌ مُتحضّرة.. طبعًا، نحن مُنشقُّون، ولكنّنا "نبتُونيون" عن جدارة واستحقاق.. نحنُ أبناءُ "نبتُون"، فلا تُرغمُونا على فعل ما لا نرضاهُ لأنفُسنا.. إنّنا في حالة حرب مع مُضطَهِدينا الذين كُنتُم عندهم.. ونؤكدُ لكم أنّنا أكثرُ كرَمًا منهم، وأكثرُ فرُوسية.. فهل تُقدّرُون أخلاقياتِ الفُرسان؟!»..

نَزلْنا واحداً بعد الآخر من سلاليم المركبة..

لم أرَ "سُونا"..

وفي قاعة المطار، تمّ تجميعُنا..

وبدأ تفتيشُنا واحداً بعد الآخر..

وجدتُني أمامَ أحد المفتّشين.. قال: «أهلاً بك يا قائدَ المركبة.. إنّنا لسنا عُميانًا.. فالعمَى لا وجود له عندنا.. وإذا كان العمى موجودًا، فهو مُجردُ انعدام البصَر.. نعم، العمى هو اللاّبَصَر، تمامًا مثل الليل والنهار.. فالليلُ هو اللاّنهار.. والشرُّ هو اللاخيْر.. هل فهمتَ؟»..

لم أفهم شيئًا..

لا أعرفُ ما يقولهُ وما يقصدُه!

وحضر مُفتّشُ البصمات..

أمرني بفتح عينيّ، ثم الفم، فالأُذُن.. وقال: «بصماتُ الرؤية والصّوت والسّمع، تكشفُ الشخصيةَ الحقيقية للإنسان، بل هي الإنسانُ نفسُه.. هل تعرفُ ذلك؟»..

قلتُ: «نعَم!»..

ـ وهل تعرفُ أن في بصماتك مُنعرجات مُبْهَمَة؟..

قلتُ: «أعرف المنعرجات، ولا أعرف المُبْهَمَة»..

ـ المُبْهَمَة سوفَ تتّضحُ رُوَيْداً رويْداً..

وأخذُوا من كل فرد فينا خلايا دماغية، بهدف تحليلها، لمحاولة معرفة ما فيه نُفكّر..

ثم نقلُونا في قطار إلى مُعسْكَر المراقبة..

المعَسْكرُ ميدانٌ للرياضات والتداريب، تتوسّطهُ بناياتٌ شاهقةٌ..

تم توزيعُنا على غُرف مُستقلّة.. وقال لنا مجهولٌ ونحنُ نصعدُ السلاليم: «من شعاراتنا هُنا: لكل فرد، الحقُّ في غُرفة واحدة، وسروال واحد...!»..

ـ وجدتُ في غُرفتي مائدةً عليها خُبزةٌ واحدة، وملعقةٌ واحدة»..

كان قد مرَّ شهرٌ كاملٌ على آخر تغذيتنا في "واحة المخادعين"..

تكلّمَ حائطُ الغُرفة: «الخُبزةُ أمامك فيها كلُّ الطاقة المطلوبة.. بعد أكلها، يمكنُك الضغط على زرٍّ واضح تحت النافذة.. بعد الضغط،

سيمنحُك زُجاجة الماء.. هذا ماءٌ سيكْفيك مثل الخُبزة لمدة شهر».

واختفَى الصوت..

كنتُ أخشى أن يكُون في الخُبزة مكروه.. وقد تردّدتُ طويلا، وفي الأخير، توكلتُ على الله وافترَسْتُ الخُبزة..

وشربتُ القارورة..

ثم تمدّدتُ على السّرير..

□ لم يأتِني نوم..

آلافُ الاحتمالات تتراقصُ أمامي..

وبغتةً أسمعُ طرقةً على الباب.. أفتحُها فأجدُ أمامي شخصًا يبتسم: «هل عرفْتَني؟»

ـ لا..

ـ أنا من أنتُم ضيوفُه..

ـ "الأصلح"؟

ـ نعم.. أنا "الأصلح".. ألا تدعُوني للدخول؟

ـ تفضّلْ!

جلسَ على الكُرسيّ، وسَأل: «من أنت؟»..

قلتُ: «أنا "لُقْمَان"، قائدُ مركبة الأرض.. جئتُ إلى "دولة نيتُون" حاملاً أغذيةً مُعلّبة.. وأعودُ إلى الأرض حاملا صخوراً للتطبيب.. ومعي سُيّاحٌ أرضيون قاموا بزيارة "نيتُون".. هذا أنا.. إنسانٌ بسيط..

مُتأمّلٌ في الحياة.. أحلُم بالسلام والتعاوُن بين الكائنات المعمّرة لكواكب الشمس.. وهانتَ أرغمْتني لوقف رحلتي، وجئتَ بي إلى هنا.. فماذا تُريد؟ ومن أنت؟ منَ القراصنة؟ أم من المصلحين؟ وما المطلوبُ منّي؟»..

قال "الأصلح": «أنا أيضًا إنسانٌ بسيط.. والحديثُ عن الإنسان هو حديثٌ عن منبع العقل.. حديثٌ عن كوكب الأرض.. من هناك أتى أجدادي.. وقد وُلدتُ على هذا الكُوَيْكبِ الذي نحنُ فيه.. وُلدتُ به قبل حوالي مائة وستين عامًا، بالتوقيت الأرضي.. هو بساطٌ تابعٌ لدولة "نبتُون".. هو تابعٌ لها شكلاً.. وفي الحقيقة نحنُ انتزَعْناهُ بالقُوّة...»..

وقاطعْتُ "الأصلح": «أخذتُموهُ بالقُوّة، فمن أنتم؟»..

ـ نحنُ مجموعةٌ من ذوي النّوايا الحسَنَة.. سياسيُون لم تنسجم آراؤُنا مع توجُّهات المسؤولين في "نبتُون".. فنصحْناهم ولم ينتصحُوا.. واضطررْنا إلى خوض الكفاح المسلّح.. لم يتركُوا لنا من خيار إلا القتال.. ومنذ مائة عام، ونحنُ على جبهات القتال..

سألتُ: «وهل بعد هذه المدّة فرضتُم وجُودكم؟»..

قال: «نعَم.. وهم يحسبُون لنا ألفَ حساب.. ولكنهم لا يُريدون التّفاوُضَ معنا.. وإنهم كُلما شعرُوا بإمكانية إجراء الحوار، وتسوية الخلافات السياسية بطريقة سلمية، تراجعُوا واختلقُوا مُبرّرات لقطع أية مُبادرة هادفة للتّسوية.. وأصبحنا نشعُرُ أن قضيتَنا تُستغلُّ

كمُبرّرات سياسية للتّغطية على المشاكل "النبتُونية" العديدة.. وهذا ما يُغيظُنا أكثر.. فليست لدى هؤلاء رغبة حقيقية في طيّ صفحات الماضي، وبدءِ عهدٍ جديد»..

وسألتُ: «وما علاقتُنا نحنُ بخلافاتٍ داخلية للعائلة "النبتُونية"؟ لماذا تحتجزُوننا؟ ما ذنبُنا نحن؟»..

قال "الأصلح": «ذنبُكم هو انفتاحُكم.. فأنتُم مُنفتحون على النظام القائم في "نبتُون" دون أن تعلمُوا أن أيّ انفتاح لا يُمكنُ أن ينجح إلا بمُشاركةِ الطرفيْن مُشاركةً كاملة.. فلن تنجحوا في هذا الانفتاح إذا كانت لكم مشاكل مع القمر الأرضي، لأن القمر جزءٌ من كوكب الأرض.. فسواءٌ أحببْتُم أم كرهتُم، القمرُ موجودٌ في أية تسوية أرضية مع "نبتُون".. فلكيْ تتطوّرَ مُعاهدتُكم "النبتُونية"، عليكم أن تجدوا حلولاً جذرية للانشقاق القمري عن الأرض.. وإلاّ، كيف يرتاحُ شُركاؤُكم "النبتُونيون" في التّعامُلِ معكم، وأنتُم في حالة عرقلة اقتصادية وسياسية وأمنية مع القمر؟ إنّ وضعكُم هذا ينطبقُ علينا كل الانطباق.. فهل فهمتَ؟»..

ـ وما المطلوبُ منّا؟

ـ المطلوبُ يبدأُ منك أنتَ قائدُ الرّحلة.. وأرى أن أوّل ما يجبُ عملُه هو أن تُخبرَ الأرض وتُخبرَ "نبتُون".. يُمكنُك أن تبعث إليهما من غُرفتك هذه رسالة إليكترونية تُعلنُ فيها ما أنتم فيه، وتدعُو إلى تسوية الوضع.. ومن خلال جواب الأرض، وموقف "نبتُون"، سنعرفُ

معًا كيف نتصرّف!

وسألتُه: «لنفرضْ أن الجواب سلبي.. ماذا ستفعلون بنا؟ هل ستحتجزُوننا عندكم رهائنَ قابلةً للمُساومة؟»..

ـ أبدًا.. فرغم الطريقة الخشنة التي أرغمْناكُم بها على وقف رحلتكم، وتحويلِ اتّجاهكُم إلينا، فإنكم لستُم رهائن.. أنتُم ضُيُوفٌ مُعزّزون مُكرّمون.. سنستضيفُكم بضعة أيام، أي المدّة الكافية لكي تتعرّفُوا على واقعنا ومطالبنا، وتتأكّدُوا أنّنا مُسالمون، وعلى استعدادٍ لإلقاء الأسلحة وبدء مفاوضات سلام شامل..

وسألتُه: «يا سيادة "الأصلح".. هل أنتُم مُنشقُّون؟ هل تُراهنُون على استمرار الانشقاق؟ أم تُريدون الاندماج في العالم "النبتُوني"؟»..

قال: «مللْنا الانشقاق.. لقد اختار أجدادُنا الانشقاق كمسلكٍ لتحقيق الوحدة على أساس توزيع عادل للثروات، وتمكين كل "نبتُوني" من حقّه الطبيعي في الحياة النيابية والسُّلطوية والأمنية»..

تأمّلتُ الرجُل وقلتُ له: «إذن، لستُم من العصابات التي تقطعُ الطرُقَ الفضائية؟!»..

أجاب: «الحالة الوحيدة التي قطعْنا فيها الطريق هي حالتُكم.. وقد فعلْنا ذلك، لأنّه قد لا يتسنّى لنا مُستقبلاً تبليغَكم مطالبَنا المشروعة.. ونحنُ إذْ نعتذر، نتوسّمُ فيكم كُلَّ الخير.. ونتمنّى أن تتدخلُوا لتسوية هذه الخلافات، حتى لا تكون عرقلةً في طريق أيّ

تعـاون أرضي "نبـتُـوني" .. أرجـو أن تُبلغ كلّ هذا، وبكل تقـدير، لكوكب الأرض، وأيضـا لكل المسـافرين معك .. وسنلتقي لمواصلة الحديث غداً .. أتمنّى لك ليلة سعيدة، وأحلاماً لذيذة!» ..

وخرجَ "الأصلح" ..

ليس الرجُلُ بالشكل الذي كنتُ أتصـوّر .. فـمن كـلامـه يبـدُو مُتحمّسًا للسلام بين الكواكب ..

فتحتُ جهاز التلفاز، ودخلتُ إلى شبكة الاتصالات الكونية ..

بعثتُ رسالة إليكترونية إلى "كبير الأرض" .. أخبرتُه بما وقع ..

ورسالةً أخرى إلى رئيسة "دولة نبتُون" ..

وفي الرسالتيْن أكدتُ على رغبةِ "الأصلح" في سلام شاملٍ وعادلٍ بين مجموعته المنشقّه والمسؤولين "النبتُونين" ..

فما العمل؟

حاولتُ أن أستسلمَ للنّوم ..

ولكن أيّ نوم؟

الليلةُ مُضطربة ..

❐ ... وأفتحُ التّلفازَ الكوني ..

هذا جوابٌ من الأرض ..

رسالةُ الأرض تقول: «عليكَ بالقيام بكلّ المساعي الحميدة .. وإذا اقتضى الأمرُ أن تعُود إلى "نبتُون"، فلا تتردّدْ .. ولكن، هذه المرة،

يجبُ أن تعتبر كلُّ رُكّاب وطاقم المركبة برلمانيين ينوبُون عنّا جميعًا، نحنُ أهل الأرض، في هذه الوساطة السّلمية من أجل إخواننا "النبتُونيين" .. فادْعُ فورًا إلى اجتماعٍ طارئ مع كلّ الرُّكّاب، على أن يحضُرَهُ "الأصلح" شخصيًا»..

وهذه رسالةُ "نبتُون" : «فُوجئْنا بما وقع لكم.. وإنّنا نُحددُ للقراصنة أجلَ شهرٍ واحد لإخلاء سبيلكم، وإلاّ فسنتدخّلُ بالطريقة التي نراها مُناسبة!»..

وقدِمَ "الأصلح"..

وانعقدَ الاجتماعُ الموسّع..

وأطلعْتُ الجميع على التفاصيل.. وقلتُ للرُّكاب والطاقم: «الأرضُ تعتبرُنا جميعًاا هنا برلمانيين نمثلُ الأمة الأرضية.. ومن موقعنا هذا، فإنّ علينا مسؤوليةَ التدخُّل الفوري، لمحاولة رأب الصّدع، وتجنيب هذه المنطقة من الفضاء الشّمسي كل ما لا تُحمدُ عُقباه.. وألتمسُ من برلماننا المتنقّل أن يمارس واجبَ التّصويت: فمن منكم يَقبلُ مَساعينا الحميدة؟ ومن يرفُض "الخيطَ الأبيض"؟»..

صَوّتَ الجميعُ من أجل "الخيط الأبيض"..

ورفَعْنا مُلتمسًا إلى "دولة نبتُون" نطلبُ فيه لقاءًا مُوسّعًا مع كبار مسؤوليها..

وكان مُتوقعًا أن يكون الرّدُّ إيجابيًا.. فقد وصلَت رسالةٌ صوتية من الرئيسة "تينا"، تُرحّبُ بزيارة المصالحة..

ذَهبْنا إلى المطار في موكب يقودُه "الأصلح" ..

وتمّ عزفُ نشيد "السلام الشّمسي" ..

وأقلعَتْ طائرتُنا التي ستتحوّلُ في الأجواء العُليا إلى مركبة..

وبغتةً، وأنا في مقصُورة القيادة، دخلتْ عليّ "سُونا" ..

كانت تضحك.. في حالة ابتهاجٍ واضح..

أخذَت مقعدَها إلى جانبي، وطلبتْ منّي أن أُسمعها الصوتَ لخلاّبَ لنجمة "نبتُون" ..

ابتسمتُ لها: «لستِ وحدكِ بها مُعجبة.. أنا أيضًا تسحرُني كُوليتا" .. فاسْمعيها معي!»..

وظهرتْ "كُوليتا" في الشّاشة..

وبدأتْ أغنيتَها الجميلة: «اللاّحرْب واللاّعُنف»..

وهذه أسطوانةٌ أخرى تتغنّى بالحبيبة..

وتهتزُّ "سُونا" في مقْعَدِها، وتُدَنْدِن: «أنتَ يا ولْهان.. مطبخُكَ سيادتي.. كُلْ قليلاً.. واضْحكْ كثيرًا.. وأضْحِكْني معك.. نَحِكْني أيُّها الولْهان!»..

كلامٌ رقيقٌ من "سُونا" ..

والرّحلةُ قد وصلت إلى مشارف الحدود الربيعية لدولة "نبتُون" ..

وهذه دوريةُ الجمارك تنبعثُ من السحاب الربيعي، وهذه المرّة حيّينا، وتُرافقُنا في موكبٍ فضائي بديع إلى "العاصمة" ..

هناك يستقبلُنا زعيمُ "واحة الخادعين"، فيُرحّبُ بنا ويُرافقُنا إلى

مقرّ رئيسة "دولة نبتُون" ..

وعلى الفورْ يبدأ الاجتماعُ الموسّع، بحضور وفد من كبار المسؤولين..

أعطتْني الرئيسةُ الكلمةَ فعرضتُ كلّ ما وقع: «هذا ما حدثَ بعد رحيلنا من هُنا.. ولقد تلقّيْنا من "الأرض" أمراً يقضي بأن نعمل كلّ ما يمكنُ أن يُفيدكم، إذا طلبتُم منّا ذلك.. فنحنُ أيضًا قد نلجأ إلى إخواننا "النبتُونيين" لمساعدتنا على حلّ مشاكلنا مع النظام القائم في القمَر.. وبهذا الخُصوص تمّ قطعُ خُطوات إيجابية في طريق التّسوية التي تجعلُ القمر تابعًا سياسيًا للأرض، كما هو تابعٌ طبيعي لها.. ونرى أن البساط الفضائي، الذي يحملُ اسم "امبراطورية الأصلح"، يمكنُ أن يلتحق بأمّه الطبيعية "دولة نبتُون"، بطريقة يتمُّ بها تجنيبُ هذه المنطقة من الكون أيةَ أزمة.. ولقد تحدّثَ إلينا "الأصلح"، زعيمُ البساط، وعبّر عن استعداده لأن يبحَث معكم آفاق إنهاء هذا الانشقاق المصطنع منذ مائة عام، حسب التوقيت الأرضي.. إن هذا الوضع الانشقاقي لا يخدمُ إلا مصالح قُطّاع الطريق المنتشرين في أرجاءَ شتّى من الفضاءات الشمسية.. فعلينا بذلُ المستطاع لمساعدتكم، إذا قبلتُم، على توحيد صفوف الأسرة "النبتُونية".. ونحنُ رهن إشارتكم.. ولكم واسع النظر!»..

وبدأ النّقاشُ بين من يعنيهم الأمرُ مباشرةً، وهم مُمثّلو سُكان "نبتُون"..

قالت الرئيسة "تيتا" : «نحنُ نعتبرُ الأشخاصَ المُتمَوْقعين في ذلك البساط "النبتُوني" مُتمرّدين، خارجين عن القانون، وأكثر من ذلك : نعتبرُهم إرهابيين.. ومع ذلك، ومن أجل إشراك إخواننا الأرضيين في هذا الشأن المحلي، فإن النقاش مفتُوح بين الجميع.. وإذا وافَقْتُم على إجراء الحوار، فأنا مع الإجماع، في خدمة المصلحة العُليا لدولة "نبتُون" »..

رفعَتْ إحدى البرلمانيات أُصبُعَها وقالت : «أنا " نبتُونية" أبًا عن جدّ.. وتهُمُّني مصلحةُ وطني.. ولتحقيق هذه المصلحة، ألتمسُ من الجميع العملَ من أجل السلام في وطننا هذا.. وشُكرًا !»..

وتدخلَ برلمانيٌّ آخر : «كلُّنا في هذا النّقاش "نبتُونيون".. ومصلحةُ "دولة نبتُون" هي فوق كلّ اعتبار.. فعلينا بالحوار من أجل السلام.. وشكرًا لضيُوفنا الأرضيين !»..

ثم ارتفعَتْ أصواتٌ أخرى بنغْمةٍ مُعاكسة..

وهذا برلماني يتحدثُ بأسلوب تصعيدي : «إنّ الوطنية لا يمكن استخدامُها مطيّةً للتساهُل مع الخارجين عن " نبتُون".. أولئك لم يرفعُوا الراية البيضاء منذ قرن من الزّمن.. فلماذا هُم يرفعُونها الآن، وفي هذا الوقت بالذّات ؟ من جهتي أرى ألاّ تساهُل مع المنشقّين.. وأعلنُ "لا" لأيّ حوار يُدخلُهم إلى "العاصمة" في موقف قوّة.. يجبُ أن نُطوّقهم، ونسحقهُم، ليظهر للعيان أنهم مهزومون.. أما إذا فتحْنا لهم منفذَ الحوار، فإنهم سيأتُون وكأنهم قد فرضُوا علينا شروطَهم..

وإذن، "لا" ثم "لا".. وشُكرا!»..

ونفسُ اللهجة يأتي بها برلمانيٌ آخر..

ثم برلماني آخر..

ثم آخر..

فآخر..

وينتهي الاجتماعُ الموسَّع برفض الحوار..

وعلّقَتْ تلفزةٌ مُحايدة: «رغم أنف كلّ دُعاة السلام، فإن الصوت الأعلى كان صوتَ من يَدقّون طبُولَ الحرب!»..

خرجْنا مُنهزمين من الاجتماع..

□ توجّهتُ إلى الرئيسة "تِيتَا"..

عقدتُ معها في مكتبها اجتماعاً آخر..

حاولتُ إقناعَها بأهمّية أن تنتصر في الحوار مع الحاكمين في البساط المسمّى "امبراطورية الأصلح"..

وقلتُ: «إن الحوار ما هو إلا حوار.. ولا يجوزُ أن يُسمَّى هزيمة، خاصة وأن الانشقاق المعني قد استمرَّ منذ قرن من الزمن.. فمن المستفيدُون من هذا الانشقاق؟ المستفيدُون ليسوا "أبناءَ البساط"، ولا "أبناءَ العاصمة".. إنهم طرفٌ ثالث يُراهنُ على استمرار الانشقاق، ليتّخذهُ مسْلَكًا إلى مُمارسة كل الممنُوعات، كالأسلحة الإشعاعية، والصواريخ والمخدّرات وغيرها من بضائع التّهريب، ووسائل التدمير

والتخريب.. فمن الحكمة تفويتُ الفُرصة على أعداء الوحدة.. من الحكمة العملُ لجمع الشّمل بين كُلّ أبناء "نبتُون"، في الشمال كانوا أو الجنوب.. هذا رأيي أتقدمُ به إلى سيادة الرئيسة، نيابةً عن الأرض التي تتشرّفُ بالقيام بهذه الوساطة من باب الاعتزاز بأن تَبْني معكُم مستقبلاً مُشتركًا قوامُهُ السلام والتعاوُن»..

فكّرَت الرئيسةُ مليًّا، وقالتْ: «يجبُ البحثُ عن طريقة لإقناع فريق المعارضة.. فنحنُ للأسف، عندنا مُعارضةٌ لا تعارضُ دائما من أجل المصلحة العامة.. وهذه المرة أيضا هي لا تُعارضُ إلا من أجل المعارضة، بهدف التسلُّق إلى الحُكم!»..

وتكلّمَتِ الرئيسةُ في الهاتف إلى رئيس فريق المعارضة..

وقالتْ لي: «بكل صراحة، المعارضةُ قويّةٌ عندنا في "دولة نبتُون"!»..

دعَتهُ إلى مكتبها، ودَعَتْني على أن نلتقي غدًا في مثل هذا الوقت، بمكتبها..

وخرجتُ وفي نفسي تساؤلات: من تُراهُ يقفُ وراء "جبهة الرّفض"؟ أهو الجناحُ المتشدّدُ في البرلمان؟ أم ضعفُ الجناح الحاكم؟ إنهما رأسان يتصارعان من أجل أهداف مصلحية، تماما مثلما هو الشأنُ عندنا في الأرض.. وفي خضمّ ذلك، تغيبُ المصلحة العامّة..

وإنّني أخشى أن تكون وراء كلّ هذه الصّراعات قلوبٌ معدنيةٌ لا رحمةَ فيها ولا شفقة..

وعلّقتْ "سُونا" : «إذا رأيتَ رأسيْن في جسدٍ واحد، فاعلمْ أن خلفهُما ذلك "الصَّنَمُ" المُسمّى "الرُّوبُوت" ! هذا هو العدُوُّ الأكبرُ للحياة.. "الرُّوبُوت" هو "الصَّنَم" الجديد.. هو الخطرُ الأكبر !»..

وسكتتْ لحظةً ثم أضافتْ: «ما أحوجَ "دولة نبتُون" إلى وجهٍ واحد.. وقرارٍ واحد.. وهذا لا يكون إلا بوعي تامّ من قبل فعاليات الدولة، حاكمةً ومعارضة ! أما أن يكون في البلد رأسان مُتناحران، فهذا خطرٌ على الجميع»..

ورددَتْ عليها: «لا أسْلَمَ للحياة إلا المسار الطبيعي.. والمسارُ الطبيعي هو رأسٌ واحدٌ لإنسان واحد.. ودماغٌ واحد لإنسان واحد.. وقلبٌ واحد لإنسان واحد.. هذا طريقُ الصواب.. وما عداهُ فمُجردُ تشوُّهٍ خَلْقي يتوجَّبُ إصلاحُه.. أليس كذلك يا "سُونا" ؟!»..

قالت: «بلى يا قائد ! فنحنُ في زمن التّلاعُبات بالحياة.. فهذا إنسانٌ في شكل حصان، وذاك إنسانٌ بأربعة أقدام، وذلك إنسانٌ بعشْرة آذان.. فما هذا؟ الخوفُ كلُّ الخوف ألاّ يستطيع العُقلاءُ تصحيحَ ما أفسدَهُ العابثُون بالكائن البشري، وبالحيوانات والحشرات والنباتات وحتى الصخور !»..

ـ أجلْ يا "سُونا" ! فبعضُ العُلماء مُجرمُون.. ليسوا مُجرمين محلّيين، بل هم مُجرمُون كونيون.. مُجرمون على مُستوى السُّلالات البشرية.. على مستوى التاريخ المستقبلي للحياة.. وعلينا أن نقوم بثورة أخلاقية لقلب المفاهيم الفاسدة التي يتبجّحُ بها من يستعرضُون

علينا عضلاتهم العلمية السلبية !».

والحديثُ في هذا طويلٌ طويل !

لا ينتهي.. ولن ينتهي إلا بثورة علمية حقيقية..

وحتى هذه لن تُنهيها.. فمعَها، لا بُدَّ من انتصار للعُقلاء على المعتُوهين.. لا بُدَّ من انتصار الطبيعة على اللاَّطبيعة.. والحياة على التَّشويه..

وقالت "سُونا" في أذُني، وأنا عائدٌ من جديد إلى مكتب رئيسة الدولة: «خُذْ لك فنّانًا يرسُم الآفاق.. هل الآفاقُ المرسومةُ هي نفسُ الآفاق الطبيعية؟ هل لها نفسُ الجمالية؟ ونفسُ الجاذبية؟ ونفسُ السِّحْر؟ الطبيعةُ هي الطبيعة. ولا سيادةَ إلا للطبيعة.. وحتى التّشوّهاتُ الخلْقية، هي أيضًا طبيعية، ويمكن إصلاحُها كما نُصلحُ النظر والأسنان.. فليسْقُطْ دُعاةُ العبثِ بالكائن الحيّ! ليسْقُطْ دُعاةُ التّشويهِ الخَلْقي والخُلُقي! هؤلاء هم الخطرُ الحقيقي على مسيرة الحياة»..

ورافقني صوتُ "سُونا" إلى مكتب رئيسة الدولة..

❐ كان وجهُ الرئيسة "تيتا" مُحْتقنًا بالغضب..

علمتُ منها أن زعيم المعارضة يُدبّرُ أمرًا.. لا شكّ أن في الأفُق عمليةً انقلابية.. فها هي الديمقراطية "النبتُونية" لا تَحُولُ دون تهديد بانقلاب..

زعيمُ المعارضة يُهدّدُ رئيسةَ الدولة بكل وسائل التّهديد، وبأنْ يُزيحَها إذا هي رضختْ للجناح الدّاعي إلى الحوار..

ويُلوّحُ بأكثرَ من ذلك: «هؤلاء الأرضيّون يجبُ ترحيلُهم عن البلد.. لا نُريدُهم هُنا.. فهُم يتدخّلُون في شؤوننا»..

وعلمتُ من "واحة المخادعين" أن زعيم المعارضة هو من حرّضَ على قطع العلاقات مع الأرض.. وهو من حاولَ منعَنا من الدخول إلى "دولة نبتُون"..

باحَ لي زعيمُ "واحة المخادعين": «هو مُصابٌ بمرَض نفْسي لا علاج له!»..

ـ لا علاج له؟

أجاب: «في "دولة نبتُون"، ليس له علاج!»..

ـ وإذن، نحنُ هُنا لعلاجه.. سنُعالجُه، فاطْمئن!

كتبتُ إلى الأرض رسالةً في عُنوانها الإلكتروني الكوني.. وفيها أستفسرُ عما إذا كان معَنا بين الرُّكّاب خبراء في مُعالجة حالاتٍ مثل حالة زعيم المعارضة..

وعندما وصلني الرّدُّ اكتشفتُ أن معنا مجموعةً من خُبَراء العلاج!

حدّثتُهم عن المعضلة التي أصبحَتْ تُهدّدُ العلاقاتِ "النبتُونية" مع الأرض، فوضعُوا خُطة لعلاجٍ ناجع..

وذهبْنا بالخُطة إلى "تيتا"، رئيسة "دولة نبتُون"..

اكتشفتُ أن الحالة لا تسمحُ بايَ تماطُل: «وعليكم إخوانَنا

الأرضيين أن تُنفّذوا خُطّة المعالجة في أول فُرصة !»..

ووضعَتْ رهنَ إشارة خُبرائنا الأرضيين "فيالقَ" من الرُّوبوت..

وبدأ العدُّ العكسي للتّنفيذ..

والتّنفيذُ لم يطُل.. فما أن انتصفَ الليل، حتى كان زعيمُ المعارضة قد عُولج المعالجةَ التّامّة !

وتناقلتْ وسائلُ الإعلام الشمسي بعدَ ذلك أنّ «زعيم المعارضة قد تعرّضَ لاعتداء وحشي يحملُ بصماتِ أحد المختلّين عقليًّا.. وهذا المختلُّ هو حارسُه الشّخصي.. والحارسُ سوفَ يتمُّ تقديمُه إلى العدالة !»..

وجرَى دفنُ جُثّة الزعيم في موكبٍ جنائزي..

ـ بحضور رسميين ذرَفُوا "دمُوع التّماسيح" !

وانطلقَ خُبراؤُنا في زَرْع بيادقَ هُنا وهناك، لتطويق ما تَبقّى من أبرزِ وُجوه المعارضة..

هذه التّقنيةُ الجهنّميةُ مُتداولةٌ عندنا في الأرض، وعلى أوسع نطاق..

فعنْدَنا، يَقتُلُونَ، ثم يمشُون في جنازة القتيل !

❐ انتهت المعارضة..

والرئيسة "تيتا" تُوفدُ مبعُوثًا إلى "امبراطورية الأصلح"، لإجراء مُفاوضاتٍ خفيّة بهدف التّوصُّل إلى تسوية نهائية..

وسألتْني "تيتا" عما إذا كنتُ أحتفظُ بالرسالة الخصُوصية التي

سلّمتني إياها سابقًا، فأعدتُها إليها، وقالتْ: «أريدُك أن تُبْلغ كبير "الأرض" رسالةً شفوية.. فأنا أثقُ فيك، ولا أغامرُ برسالة قد تقعُ في أيادٍ مُشبوهٍ فيها.. ابْلغْهُ أنّهُ أستاذٌ وأيَّ أستاذ في فنُون التّعامُل مع المعارضة.. وسوف آتي إلى الأرض كي أشكُرَه!»..

ثم حرّكَتْ عناصرَ مُواليةً لها في المعارضة، للمُطالبة بجلسةٍ أخرى عامّة، لبحث كلّ المشاكل المرتبطة بالمحيط "النبتُوني"، بما فيها قضيةُ المنشقّين..

ها قد نجحْنا في تصدير عيّنات من تحايُلاتنا السياسية الأرضية إلى هذا الكوكب الربيعي..

وفعلاً عُقدَت الجلسةُ البرلمانية، وبأغلبيةٍ ساحقة تقرّر هذه المرّة فتحُ "حوار السلام" مع كلّ المحطّات المنشقّة، وعلى رأسها "امبراطوريةُ الأصلح"..

□ أقلعْنا من مطار "العاصمة"، تحت الزغاريد..

ورفيقتي.. لا أراها!

أين أنتِ يا "سُونا"؟ أين أنتِ يا "ذات الأخبار السّارّة"؟

ناديتُها في البوق، فأتَتْ وأخذَت مكانَها إلى جواري في مقصُورة القيادة..

أبدتْ حسرتَها الشّديدة لمآل زعيم المعارضة "النبتُونية".. وقالت: «لو كان هناك تغليبٌ للمصلحة العامة على كل مصلحة شخصية، لما

حَشرَت المعارضةُ نفسَها في موقف لا يُبرّر تشدُّدَها، وبالتالي ما كانت الأوضاعُ لتتطوّرَ إلى درجة استيراد مؤامرة من خُبراء الأرض، فينتهي الحالُ بتصفية أبرزِ وجه في المعارضة "النبتُونية".. ويُستنتجُ من هذا أن المعارضة ليست في المستوى المطلوب، وأنّ الحاكمين يلجأون إلى أساليبِ العصابات لإسكات أيّ صوت مُعارِض.. هذه العقليةُ المتشنّجَة ليست في مستوى كلّ هذا التطوُّر العلمي الموجود في الأرض، ولا في مستوى الاختراعات والابتكارات والنَهضة الشاملة "بدولة نبتُون".. فأين نحنُ من كلّ هذا يا "لُقْمَان"؟»..

لم أقُلْ شيئًا.. الجوابُ واضح..

ونُمرّ على مقرُبة من "امبراطورية الأصلح"، فتبدُو لنا كوكبةٌ من عَساكره، ثم نسمعُ صوتَ "الأصلح" نفسِه: «أنا هو.. مُهمّتُكم ناجحة.. وإنّي أضعُ يدي في يدِ "تِيتَا"، رئيسة "دولة نبتُون"، لدعْمها في مسيرتها الديمقراطية.. شُكرًا لكُم معشرَ الأرضيين على مُساهمتكم في توحيد صفُوفنا "النبتُونية"»..

أجبتُ "الأصلح": «نحنُ عائدون إليكم لا محالةَ يا سيادةَ "الأصلح".. فإلى الملتقى!»..

ـ إلى الملتقى!

☐ وواصلَتْ مركبتُنا المركبة رحلتَها باتّجاه الأرض، و"سُونا" تُردّد: «العقليةُ البشريةُ لم تتطوّر، سواءٌ عندنا أم عندهُم.. كلُّنا سواسيةٌ في التلاعُب.. العراكُ السّياسي ما زال مُؤامراتٍ في

مؤامرات.. إنه مَصْدرُ الحرُوب والنزاعات التي ما زالت مُنتشرةً في طول السماوات وعرضِها.. أنا ما زلتُ غضبانة.. مُتوتّرة.. إنّ العالم الشمسي أحمق.. أهبل.. لا مجال فيه للحوار المنفتح.. البنّاء.. اللاّأناني!»..

ـ معكِ الحقُّ يا "سُونا".. فلا خيْرَ في تطوّرٍ علمي، إذا لم يُواكبهُ تطورٌ في السلوك!

ثم خيّم علينا الصمتُ من جديد..

وخيالي يُسافر من كياني: فإلى أين نحنُ ذاهبون؟ ومن أين أتيْنا؟ وماذا وراء الكون؟ وماذا وراء الزّمن؟ ومن نحن؟

التفتتُ إليها..

ـ لعلّها مجردُ أسئلةٍ عبَثية!

ولقطع الصمت، مددتُ وجهي إلى أُذنها وهمستُ: «يا أجملَ "سُونا"! ينتابُني الشوقُ إلى حُنجُرةِ المطربة "النبتُونية".. ألا تُريدين أن نسمع من جديد محبُوبتَنا "كوليتا"؟»..

ابتسمَتْ: «نعم.. اطْلقْ سراحَ "كوليتا"!»..

وضغطتُ على الزّرّ الوضّاء.. فظهرَت "كوليتا" وهي تُحيّينا، وتُغنّي، ثم ترقُص..

رقصةُ "كوليتا" ليسَت من الرّقصات المتداولة عندنا في الأرض.. وهي أيضا فريدةٌ من نوعها حتى في "نبتُون"..

وتدورُ الأسطوانةُ وتدور..

والرّحلةُ طويلةٌ طويلة..

و"كوليتا" تُغنّي وتُغنّي..

وترقُصُ وترقُص..

وتلفازُ الأنترنيت الكوني يُشْعلُ الضوءَ الأزرق: «"كوليتا" على الخطّ!»..

استغربْنا.. فنحنُ نسمعُ ونرى أسطوانةً مُسجّلة.. فكيف علِمَتْ "كوليتا" أنّها نجمةُ رحلتنا، أنا و"سُونا"؟!

وجاءَنا صوتُها الرشيق: «كلّ من يَسمَعني في أسطوانة، يأتيني خبرُه.. الأسطوانةُ تُخبرُني بواسطة الأنترنيت الكوني.. تُخْبرني عن نفْسها وعمّنْ يَسمعُها.. وقد أسعدَني أن أكون معكُما.. فمن أنتُما؟»..

أجابت رفيقتي: «أنا "سُونا".. وهذا "لُقْمَان"، قائد المركبة.. هو يُسمّيني "سُونا".. ونحنُ مُتقاربَان جدّا.. نحنُ من أصحاب القُلوبِ الرّقيقة.. جئْنا من "نبتُون".. وإلى الأرض ذاهبَان.. فهل زُرْتِ كوكبَ الأرض يا "كوليتا"؟»..

ـ لكم أشتاقُ لزيارته!

وردّتْ "سُونا": «نتمنّى أن تفعلي.. فلكِ في أرْضنا شعبيةٌ كبيرة.. الناسُ يعشقُونك!»..

قالتْ "كوليتا": «ساحتفظُ بعُنوانكما.. أكيدًا سوف آتي.. وسأزُورُكِ يا "سُونا".. ومعًا نزورُ "لُقْمَان"»..

قلتُ: «أهلاً بكِ يا "كوليتا".. أنتِ أكبرُ مُطربة!»..

ضحكتْ "كوليتا"، وانسحَبتْ من الأنترنيت، لتتحوّلَ إلى موضُوع مُشترك بيني وبين "سُونا"..

وصرْنا بين الحين والآخر نُناديها، وهي تُنادينا، وأصبحتْ شريكةً لنا بالصوت والصورة، في رحلة الأرض..

قالت "كوليتا" في إحدى الاتصالات: «سأزورُ الأرض، وقد أتزوّجُ رجُلاً من الأرض!»..

وضحكتْ "سُونا": «ها هو الرجُل.. فلا أحسنَ منه!»..

نظرتُ إلى "سُونا" نظرة تساؤل، وضغطْتُ على شفتيَّ لنُبيهها إلى أنها قد تجاوزَت الحدّ.. لكنّها واصلتْ بلامُبالاة أُنثوية مُستفزّة: «لا أحسنَ من هذا الرّجُل!»..

وردّتْ عليها "كوليتا": «لا شكّ أنكِ تُحبّينه! أريدُ أن أعرف رأيَ "لُقْمَان"!»..

ها هي "سُونا" تُقْحمُني..

ولم أجدْ أمامي من خيار إلا أنْ أُجيبَها: «أنا لا أُحبُّ "سُونا".. أنا مجنونٌ بها!»..

صرخَتْ "كوليتا"..

وضحكتْ..

وتمنّتْ لنا رحلةً مُمتعة..

والْتفتُّ إلى جارتي: «يا من جنَنْتِني!...»..

ولم أكمِل الجُملة..

إنهُ اتّصالٌ آخرُ من كوكبِ الأرض..

□ "كبيرُ الأرض" على الخطّ..

يقول: «علمْنا أن رئيسةَ "دولة نبتُون" قد استقبَلت "الأصلح".. فكيف تتصوّرُ مُضاعفات هذا التّطوُّر؟ هل يُمكنُ أن يتطوّرَ الموقفُ إلى ضرورة تدخُّلٍ من الأرض لفائدة حليفتِنا "تِيتَا"؟»..

طلبتُ مُهلةً قصيرةً للجواب..

واتصلتُ بصديقي زعيمِ "واحة المخادعين".. قال لي: «هذا الاستقبالُ كان مُتوقّعًا ما دام البرلمانُ قد وافق على تسوية كل خلافاتنا، وبطريقة سلمية، مع كل الجهات الانشقاقية.. إلاّ أن الحيطة ضرورية، خاصة وأنّ مَقْتلَ زعيم المعارضة ما زال محورَ تساؤلاتٍ لا تنتهي.. فرغم كلّ ما قيل في حقّه، وما يمكن أن يقال، فإن للرجُل شعبية يجبُ أن تؤخذ في الاعتبار»..

وسألتُهُ: «هل ترى ضرورةً لإحضار خُبرائنا إلى "العاصمة" لوضعهم رهن إشارتكم؟ هل هناك حاجة إلى مُستشارين أرضيين، وعلى وجه السرعة، في هذا الظرف بالذات؟»..

أجاب الزعيم: «امْهِلْني لحظات.. وسيصلُك الردّ»..

ثم انقطع الاتصال..

وقالت "سُونا" : «إن مصرعَ زعيم المعارضة، وبالطريقة المعمُول بها عندنا في الأرض، لا أظُنُّها ستنتهي بسلام.. فالملفُّ لم يُغلق، ولن يُغلق.. فغدًا أو بعد غد، قد يأتي من سيُطالبُ بتحقيقٍ مُستقلّ للكشف عن كُلّ خلفيات النازلة»..

ـ معكِ الحقُّ يا "سُونا".. فالعقليةُ السياسية المدمّرة لم تختفِ بعدُ من سُلوكات كثير من الرّسميين عندنا.. إنها قنابلُ موقوتةٌ قابلة للانفجار في أية لحظة...

ولم أُكْمِلْ كلامي، فقد باغتَني جوابُ زعيم "واحة المخادعين".. قال: «تحدّثتُ مع الرئيسة "تيتَا"، فعبّرتْ عن رغبتها في أن تعُودُوا إلينا حالاً، لأنّنا قد نحتاجُ خُبراءَكم.. فقد بدأت منذ قليل عناصرُ مُشاغبة ترفعُ شعارات مُناوئة في بعض شوارع "العاصمة"!»..

وتوقّفَت المكالمة..

وهذا كوكبُ الأرض يأمرُني بلهجة صارمة: «عُدْ فوراً إلى "دولة نبتُون".. وعلى خُبرائنا الذين شاركُوا في العملية المعلومة أن يبقوا في "نبتُون" إلى إشعار آخر!»..

الوضعُ لا يحتملُ التأخير..

□ بدأتُ الدوران..

وسألتُ رئيسَ "مجموعة الخُبراء" داخل المركبة: «توصّلتُ من الأرض بأمرٍ جديد، فهل أنتم على استعداد...؟»..

أجاب: «نعم.. وجميعُنا على استعداد لأية مهمّة!»..

قلتُ: «إذن، مُهمّتُكم سرّية.. فلا تنسوا هذا.. وإذا اضطررْنا فسنستخدمُ اللغاتِ المشفّرة الثلاث في حواراتنا، حفاظًا على أنفُسنا، وضمانًا لنجاح المهمّة»..

وسألتُ الأرض: «المركبة تأخذُ طريق العودة إلى "نبتُون".. فماذا أقولُ للرُكّاب؟»..

أجابت الأرضُ: «نحنُ بصدد إرسال بيانٍ إليهم.. البيان يُطبعُ عندك اللحظة.. ستقومُ "سُونا" بقراءته عليهم.. نفّذْ حالاً!»..

سلّمْتُ "سُونا" البيانَ المطبُوع..

فأخذتِ الميكروفون: «إلى كلّ السيدات والسادة الرُكّاب وأعضاء الطاقم.. هذه رسالةٌ من "الأرض".. إنكُم برلمانٌ متحرّك.. أنتم برلمانُنا الرّحّالة.. لقد حدَثتْ تطوُّراتٌ لدى حليفتِنا "نبتُون".. وهذه التطوُّرات تستوجبُ أن نكون من خلالكم حاضرين مُراقبين، وإذا اقتضى الحال، ذوي سُلطة تقريرية وتنفيذية.. إن وجُودكم بهذه الكثافة، تجعلُ "الأرض" مُطْمئنّةً على سلامتكم، ومُتأكّدةً من نجاحكم.. فالحوارُ بينكم، وبالطريقة التي سنُكلّفُ بعضَ خُبرائنا بتعليمها لكم، سيكونُ في بعض الأحيان بأسلوب مرموز، وفي أحيان أخرى باستخدام تقنيات التخاطُر، أي القدرة على قراءة الأفكار من قريب وبعيد، والقدرة على الأجوبة بدون استخدام أية كلمة منطوقة.. وأحيانا ستكونون في وضعية الحوار بالعيون، والحوار

بالأقدام، والحوار بطُرُق أخرى.. كلُّ هذه الطُّرُق يجبُ أن تتدرَّبُوا عليها.. وسنبعثُ إليكم بأولى الدروس.. على أن تبقى هذه العلوم سرّية بينكم.. السّرّيةُ أساسية.. وعلى كبار السّنّ فيكم أن يكونُوا مثلاً أعلى في التّفاني من أجل استمرار الوجود، وأن يُشجّعُوا الصغار على حملِ مشعل التّضحية، لتمكين الأرض، ومعها الأسرةُ الشمسيةُ جمعاء، من التقدُّم وخدمة الحياة»..

انتهت رسالةُ الأرض..

ووضعَتْها "سُونا" في الملفّ "النبتُوني"..

ثم عادت لمكانها إلى جانبي..

وأخذتُ الميكروفون من جديد: «السيدات والسادة.. لا تنسوا أن تتفقّدُوا بذلاتكم الفضائية.. ارتدُوها جيّداً.. وضعُوا قُبّعاتكم.. وافتحوا كل الأجهزة النشيطة فيها.. إن القُبّعات مُبرمَجةٌ على أن تُحوّلَ كلَّ واحد منّا إلى طائرة صغيرة.. وهي أيضا مُبرمَجةٌ لتحويلنا جميعًا إلى سربٍ شبيهٍ بسرْب الطيُور.. وإذن، فاتْركُوا البذلات تشتغل، فهي تعرف ما عليها أن تعمل لإنقاذنا في حالة الخطر.. وبهذه الطريقة، سنطيرُ معًا، جنْبًا إلى جنْب، بحيثُ يسهلُ رصدُنا من قبل محطات الرّصد، كما يسهُل إنقاذُنا من الفراغ الكوني المهول.. وأخيراً، لا داعي للخوف، فنحنُ قادرون على مواجهة الموقف.. وشُكراً!!»..

❐ ها نحنُ في حالة طوارئ..

ومجيئُنا إلى "نبتُون" لم يجلُب علينا إلا الطوارئ..

فهذه هي المرة الثانية التي نعودُ فيها إلى "نبتُون" من الطريق: المرة الأولى كانتْ عندما اعترضَ طريقَنا "الأصلح"، فتدخّلنا وتوصّلنا معه إلى تسوية.. وها نحنُ نُؤمَرُ من جديد بالعودة إلى "نبتُون" في حالة طوارئ.. ويعلمُ اللهُ ما سيحصلُ في مُستقبل الأيام!

قالت "سُونا": «أُريدُ أن أتكلّمَ إلى المطربة "كوليتا"»..

أشرتُ إليها أنْ تفضّلي!

وضعَتْ أناملَها على الأنترنيت الكوني، فجاءَها الصوتُ الجميلُ من "دولة نبتُون": «أين وصلتُما يا عزيزيَّ الأرضييْن؟!»..

ردَّتْ "سُونا": «تلقّينا أمراً بالعودة فوراً إلى كوكبكُم الجذّاب.. وهذه هي المرة الثانية التي نُغادرُكم فيها ثم نتلقّى أمراً بالعودة إليكُم.. إنّ جاذبيتكُم جذّابةٌ يا حبيبتي "كوليتا"!»..

ـ يا أهلاً وسهلاً! فماذا حصل؟

لم تُجبْ "سُونا".. أشارتْ إليَّ أنْ رُدَّ عليها أنتَ!

قلتُ: «يا مُطربتَنا الغالية، كيف هي أحوالُكم في "العاصمة"؟!»

أجابت: «بألفِ خيْر.. فالسماءُ ربيعية.. والناسُ عاديُون.. ليس عندنا إلا ما يُفرح.. فمرحبًا.. أنا أنتظرُكُما في منزلي.. عندي سوف تُقيمان.. ولا تُفكّرا في الفُندُق.. إنّني لا أرتاحُ للفنادق.. وطبعًا، عندما أزُورُ كوكبَكُم الرائع، لن أذهب إلى أيّ فُندُق.. هل

تسمعُني يا سيادة القائد ؟ !»..

ضحكتْ "كوليتا"..

وضحكتْ "سُونا"..

ولا ملجأ لنا في الحياة إلا الضّحك.. ولقد قالها الأقدمُون : «من يضحكُ لا يذهبُ إلى الطبيب !»

وعلّقتْ "سُونا" : «هذه المطربةُ إنسانةٌ طيّبة.. تتحدّثُ بتلقائية.. وبلا تعقيد.. أشعُرُ كأنّني أعرفُها من زمان بعيد.. عندما تأتي إلى الأرض، ستنزلُ ضيفةً عليَّ في منزلي»..

قاطعتُها : «بل في منزلي !»..

وردّتْ : «بل عندي أنا ! "كوليتا" منّي وإليّ.. هي أنا وأنا هي.. أفهمتَ يا "لُقْمان" ؟»..

ـ ومن غيري يفهمُك يا "سُونا" ؟ وعلى كلّ حال، سنبحثُ هذا الأمر عندما يحينُ وقتُه.. والآن، نحنُ أمام مُعْطًى جديد.. يبدو أن "كوليتا" لم ترَ من شوارع "نيتُون" إلا حركة المشْي والسيْر.. أكيدًا هي على غير علم بالحركة الاحتجاجية التي استَوْجبَتْ ما نحنُ فيه !»..

□ ... ويقرعُ جرَسُ الأنترنيت..

مُكالمةٌ من "الأصلح" : «إنكُم تقْتربُون من حقُول ألغامٍ فضائية.. فقُمْ أيها القائدُ فورًا بالانحراف درجتيْن إلى اليسار.. درجتان تكفيان لتجنُّب المجال المغناطيسي الملغُوم.. هل تسمعُني ؟»..

ـ أجل.. أسمعُك.. وأنا بصدد الانحراف درجتيْن إلى اليسار.. واخبرْني.. كيف عرفتَ أنّنا نقتربُ من المتفجّرات؟

قال "الأصلح": «مرايانا الاصطناعية تتتبّعُكم.. إنكم منذُ إقلاعكم من "نبتُون"، لم تغيبُوا عن عدَساتنا لحظةً واحدة.. إن حياتكم تهُمُّنا.. ابْقَ مُنحرفًا درجتيْن لمدة خمس دقائق، وبعدها عُدْ إلى الدرجة التي كُنتَ عليها.. عندئذ تُصبحُ الألغامُ مُتناثرةً في الفضاء اليميني للمرْكبَة.. وستكونُ بعيدةً عنكم.. إنّنا بانتظاركُم!»..

سألتُ "الأصلح": «وهل في طريقِنا حقولُ ألغام أخرى؟»..

قال: «نحنُ نتتبَّعُكم.. فلا تقْلَقْ! بطبيعة الحال، تُوجدُ في فضاءاتنا عصاباتٌ تتعَسْكرُ في محطّاتٍ مشحونة بكُلّ أنواع الصّواريخ.. هذه العصاباتُ تتحكّمُ في حقول ألغامها، وتنقُلُها من مكان إلى آخر من هذا الفضاء الشاسع، حسبَ الأهداف التي تسعى لاقتناصها.. فهل تعرفُ من يكونُ زارعُ الألغام التي تُمرّفون بجوارها؟»..

ـ لا أعرف!

قال: «هي عصابةٌ مُتعاطفةٌ مع الطُّروحات التي تبنّاها المرحوم: زعيمُ المعارضة "النبتُونية".. هذه العصابة مُنتشرةٌ على هذا الخطّ الفضائي الذي تعبُرهُ مَركباتُ السلع، ومركباتُ النقل البشري والحيواني.. وقد كانت تترصّدُكم في مُحاولة لمنعكم من العودة إلى "نبتُون".. وبفضل يقظة تقْنيينا، ودقّة عيُوننا الاصطناعية السابحة هنا وهناك، تمكّنّا من إنقاذكم.. ولكن الخطرَ ما زال قائمًا.. ولن

نتْرُكَكُم تمرُّون من هُنا مرةً أخرى، بدون شبكةٍ للمُراقبة والحماية، وموكبٍ للمُرافقةِ الشَّرَفية.. أنتم ضيُوفُنا وإخوانُنا، وعلينا واجبُ حمايتكم!»..

ابتعدنا عن الخطر..

وعُدنا إلى خطِّ الرحلة السابق..

وهذه مكالمةٌ أخرى..

مكالمةٌ من كوكبِ الأرض تُطَمْئِنُنا: «بالفعل كنتُم في خطر.. وباتَ واجبًا علينا أن نشكُر "الأصلح".. ومن جانبِنا قرَّرْنا أن نُزوِّدكُم في رحلاتكم المقبلة بوسائلَ دفاعية، منها أن تستطيعُوا من المركبة إطلاقَ عواصفَ كهْربائيةٍ بعيدة المدى، لصدِّ أيِّ هجوم مُحتمل.. كما نُزوِّدُكم أيضًا بمرايَا قادرة على استقْراء أية أخطار ولو كانت بعيدةً عنكم بعشرات الآلاف من الكيلومترات.. إنّكم لستُم وحدَكم.. نحنُ معكم بكُلِّ جوارحنا.. وابلغُوا تحيات الأرض إلى حُلفائنا في "دولة نبتُون"!»..

ثم انقطع الاتّصالُ الأرضي..

نحنُ على مشارف "واحة المخادعين"..

أبعثُ تحيةً إلكترونية إلى زعيمها الصديق، فيأتيني الجواب: «أنا في انتظاركم بمطار "العاصمة".. فإلى اللقاء!»..

ـ إلى اللقاء!

□ وألتفتُ إلى "سُونا".. كانت شبهَ نائمة.. فقد أرهقَها التَعب.. وأُطلقُ اسطُوانةً جديدةً للمطربة "كوليتا".. وتبدأُ الفنَانةُ الكبيرة

بأغنية "العصفور": «هو يسحقني.. عصفورٌ يُبدّدني.. بريشه.. بتاجه.. بوقفته.. بحُسنه يُزلزلني.. يا سيدي لا تُلمني.. في قلبي صداك.. ورائعًا وجبّارًا أراك.. فسلامٌ يا سيّدي.. عليك.. وعلى كلّ العصافير...»..

وقاطعَ الاستمتاعَ بالحُنجُرة الشّجيّة، اقتحامٌ مُباغتٌ لصوتٍ مُجلْجِل: «هُنا مطارُ "العاصمة".. ارجعُوا من حيثُ أتيْتُم.. إنكم ممنُوعون من الهبوط.. العسكرُ قام بانقلاب على النظام في "نبتُون".. الأوضاعُ هنا قد تغيّرتْ.. وإذا حاولتُم النزول، فسَنقْصفُكُم!»..

ويتكرّرُ البيان: «هُنا مطارُ "العاصمة".. عُودُوا من حيثُ أتيْتُم! عُودُوا من حيثُ أتيْتُم!...»..

وتهتزُّ بنا المركبة..

لقد أطلقُوا علينا قنابل صوتيةً لإفزاعِنا..

وأُدركُ أن المسألة جادّة.. وأقومُ بنصف دورة.. وها هي المركبة تفرُّ من "نبتُون"!

ما زالت قنابلُ الإفزاع تُلاحقُنا..

وأحاولُ الاتصال بأيّ كان، ولكن دون جدوى.. فقد تمكنَت القنابلُ الصّوتيةُ من التّشويش على وسائل الاتصال..

وأعلنُ حالةَ طوارئ داخل المركبة: «المطلوبُ منكم حضرات البرلمانيين أن تلتزموا مقاعدَكُم، بهدوء ونظام.. فلا خيار لنا في هذا الوقت بالذات إلا التّحكُّم في أعصابنا.. واطلبُ من خُبرائنا أن

يضبطُوا أجهزةَ التّواصُل المثبّتة في بذلاتهم، على مقصورة قيادة المركبة.. فالخطُّ الذي يربطُني بكل الجهات المعنية، مفتوحٌ لهم بحيث يستطيعُون معرفة المستجدّات، ويُمكنهم بذلك التأمُّل والتشاوُر لاتّخاذ الموقف المناسب.. وإذن فالخطُّ مفتوحٌ بيني وبين الخُبراء.. أما بخصوص أعضاء الطاقم، فألتمسُ منهم إحضار وجبات الأوكسيجين والأغذية والمشروبات المركّزَة، وتوزيعها فوراً على الجميع.. وأطلبُ من مجموعة الرُّوبوت النائمين في مُستودع المركبة، أن يستيقظُوا فوراً، ويبدأوا في تجهيز أنفُسهم.. كلُّ فرد هُنا سيركبُ، في حالة الضرورة، على ظهر روبوت.. إن لكل واحدٍ منكم روبوتٌ خاصٌ تحت مقعده.. الرُّوبُوت سيتحوّلُ في حالة الضرورة إلى طائرة نقّاثة.. فكُلّ الرُّوبُوتيين مُجهّزون بكل الطاقة الكافية لنقلنا جميعًا عبر كل المسافة التي تربطُنا بإمبراطورية "الأصلح".. وعليكم أيضًا ضبط بذلاتكم لكي تتحوّل هي أيضا إلى طائرات صغيرة، في حالة نفاد الطاقة الروبوتية.. وإذن، فلكل واحد منّا طائرتان: الأولى هي الروبوت، والثانية هي البذلة.. ولا تنسوا أن تضعُوا في بذلاتكم قوارير الأوكسيجين والأغذية والمشروبات المركّزَة التي تدومُ فعاليتُها لا لشهر واحد، بل لعام كامل.. وسيقومُ الروبوت فوراً بتوزيعها عليكم، باعتبارها طاقةَ الطوارئ القُصوى.. إنّنا إذا اضطررْنا، سنأخذُ الخطّ باتّجاه حليفنا "الأصلح"، على متن مركبتنا، وإذا لم تكُن فعلى متن الروبوت، أو في بذْلاتنا الطائرة.. وعلى الجميع

الشروعُ فوراً في التّنفيذ.. وساتّصلُ بكم إذا جدّ جديد.. أما إذا لم يجدْ جديد، فإنّ مضمُون هذا البيان سيبقى ساري المفعول إلى أن ننزل بسلام، إن شاء الله، وعلى الأرجح، في "امبراطورية الأصلح"»..

انتهى البيان..

وقفزَتْ "سُونا" واقفة: «ماذا أفعلُ يا سيادة القائد؟»..

ـ ساعَدي أفرادَ الطّاقم على تجاوُز أيّ ارتباك.. تأكدي أن الجميع ارتدوا بذلاتهم، استعداداً للقفز إلى الفراغ الكوني للطيران.. وتأكدي أيضا أن لكل واحد منهم وجبَتَه الطاقَوية.. وأيضاً تأكّدي أن لكلّ واحد روبوته الخاص!

وانطلقَتْ "سُونا" في الأجواء الداخلية الفسيحة للمركبة..

وتحدثتُ إلى رئيس الروبوت: «هل كلُّهم في حالة يقظة؟»..

ـ نعم يا سيدي القائد..

ـ وهل يُبدون الطاعة؟ هل هم جميعًا في وضعية الطاعة التامة؟

ـ نعم يا سيدي القائد..

قلتُ: «وإذن، عليك بتسليحهم.. فعلى كل واحد منهم أن يتزوّد بأسلحة الدفاع والهجوم.. وأيضا بوسائل حماية الرُّكّاب.. هل سمعتَ؟»..

ـ نعم يا سيدي القائد..

وقلتُ: «تأكّدْ أن كل واحد منهم يتوفّرُ على كفاية عام واحد من

الطاقة، وأنه قد أيقظَ في كيانه جهازَ الصيانة، وكذا جهازَ الإصلاح.. فلا يجوزُ أن يتعرّض أيٌّ واحد منهم لعَطب، دون أن يستطيع إصلاح نفسه بنفسه، وإنقاذَ وجوده، وبالتالي إنقاذ الحياة التي هي على ظهره، وتحت مسؤوليته.. هل سمعتَ؟»..

ـ نعم يا سيدي القائد..

قلتُ: «إذن، تأكّدْ من كلّ هذا جيّداً.. وإذا تبيّن أن فيهم روبوتًا مُتمرّداً، فعليك أن تُبادر فوراً إلى تدميره والإلقاء به قطعًا معدنية في الفراغ الكوني.. هل سمعتَ؟»..

قال رئيسُ الروبوت: «نعم يا سيدي القائد.. كلُّنا في وضعية الطاعة التّامة، وعلى استعداد لأية مهمة يتطلبُها الموقف!»..

انتهى الاتصال..

وجاءني روبوتٌ مُتسرّع: «هاكَ الماء والخُبز!»..

الماءُ والخُبزُ مُشْبَعان بالموادّ والعناصر الطاقوية الكافية لمدة عام.. نحنُ أيضًا في كوكب الأرض ابْتَكرْنا، وبطريقتِنا، هذه الوجبة المتكاملة، نظراً لضرورات الرحلات الفضائية الطويلة..

□ ما زلتُ أحاولُ الاتصال بالأرض، وبصديقي زعيم " واحة المخادعين"، وبزعيم "امبراطورية الأصلح"، لكن الخطوط كلُّها مُغلَقة..

وصوتٌ خشنٌ آخرُ يقتحمُ المركبة: «أنا مُتطوّعٌ لخدمتكم.. وبتعبير

أوضح: أستطيعُ أن أُخرجكُم من هذه الورطة، ولكن بثمن!»..

قلتُ: «وما الثمن؟»..

أجاب: «نستطيعُ أن نتفاهم وجهًا لوجه.. فتعالوا معي إلى أقرب محطةٍ لنا.. اتْبعُوني!»..

كان الغريبُ يتكلمُ من طائرةٍ تُشْبهُ النَسْر..

خفَضتُ السُّرعة.. وحوّلتُ المركبة إلى طائرة شراعية.. ثم بدأتُ التّحليقَ خلفَه..

وإلى الآن، ما زالتْ كلُّ خطوط الاتصال غيرَ سالكة..

قال الغريب: «بعد ساعةٍ سننزلُ في المحطة!»..

سألتُه: «ومن أنت؟»..

قال: «سيّدُ هذه الأجواء.. فكلُّ الأجواء الواقعة في حدود ساعة من التّحليق، تابعةٌ لنُفُوذي.. ولكي تتأكّدُوا من ذلك، تذكّرُوا حُقول الألغام.. هل نسيتُم الألغام؟»..

وضحكَ الغريبُ ضحكاتٍ هستيرية..

ودخلَتْ عليّ "سُونا".. همَسَتْ في أذُني: «هذا مجنُون.. لهُ صوتُ القراصنة.. لا شكّ أنه من مجانين الفضاء»..

ـ وما العمل؟

أجابتْ "سُونا": «لستُ أدري!»..

ما زالت كلُّ خطوط الاتصال مقطُوعة!

لم أعُدْ أعرفُ أين نحن.. لم يعُد هُناك من يُوجّهُنا، باستثناء هذا

الغريب الذي يقودُنا إلى المجهول !

أتبعُهُ باحتراس..

قلبي يدُقُّ بقُوّة..

والغريبُ أمامي يطير.. ويلتفتُ إلى المركبة.. ثم يُطلقُ صوتَهُ الخشن: «لا تخشوا.. أنتُم في ضيافتنا !»..

ويُواصلُ التحليق.. وأنا أتبعُه.. وأتبعُه..

وتظهرُ طائراتٌ كالوُحوش هُنا وهناك.. ويقولُ الغريبُ: «هذه جاءتْ لحمايتكُم.. فاطْمئنُّوا !»..

ما زال الغريبُ أمامي..

وأنا أتبعُه.. وأتبعُه..

ثم يلتفتُ خلفَهُ ويقول لي: «يا "لُقْمَان".. هل تعرفُني؟»..

أجبتُ: لا..

قال: «أنا أيضًا لا أعرفُك.. ولا أُريدُ أن أعرفَك.. فأنتَ مُتواطئٌ مع حُثالة الحُكم في "نبتُون".. ومن معكَ مُتواطئون ضدّ الشعب "النبتُوني" المقهور.. إنكم أنتم أيضًا، لا تُريدونَنا أن نعيش الحياة الهادئة السليمة.. لا تُريدُوننا أن نستنشق الحياة.. إنكم مثل تلك الحُثالة لا تُريدُوننا إلا في الحضيض.. في القاع !»..

وسكتَ الصوتُ بُرهةً ثم قال: «أعرفُ لمَ جئتُم إلى هُنا.. لقد جئتُم من أجل مُساندة الظلم والقهر.. والمرتشين والمفسدين.. جئتُم لتكريس تخلّفنا.. جئتُم للبيع والشراء في تردّينا.. أنتم هُنا للفُرجة

على "نبتُون" !»..

لم أعرف كيف أُجيبُ هذا الغريب..

ولكن صـــوتهُ ازداد خـــشـــونةً وفظاظة: « أعـــرفُ من تكونُ يا "لُقْمَان".. ومن هم معك.. كلُكم عُملاء.. سماسرة.. مُتزلّفُون.. تعيشون بوجهيْن: وجه هناك، ووجه هُنا.. وتمتهنُون المُحاباة، هنا كما هناك.. أنتم مُنافقون، مُخادعون.. مُنحطُّون.. من قاع الانحطاط أتيتُم، وإليه تعُودُون !»..

أنا ما زلتُ صامتًا.. مشدوهًا لهول ما أسمع..

ويُجلجلُ الغريبُ بكلام غيرِ مفهوم، ثم يصرُخُ في مرؤوسيه: «يجبُ إرجاعُهم إلى قاع الدُّنيا.. لا.. لا.. بل قذفُهم إلى خارجِ الدُّنيا ! فاطلقُوا الرّاجِمات !.. الرّاجِمات !.. الرّاجمات !...»..

وتنفجرُ المركبة..

إنّهُم قصفُونا !

قصفُونا.. وأصرُخُ في الركّاب: «اقفزُوا إلى الفراغ الكوني !»..

أصرخُ عاليًا: «اقفزُوا إلى الفراغ !»..

ثم أصرُخ: «اقفزُوا ! اقفزُوا !»..

وأستيقظُ مفزُوعًا..

وأفتحُ عينيّ: «أنا لم أقفز !»..

و"سُونا" لم تقفز..

هي بجانبي..

ما زالتْ بجانبي..

الحمدُ لله.. مُجرّدُ كابوس..

لقد كنتُ أحلُم!

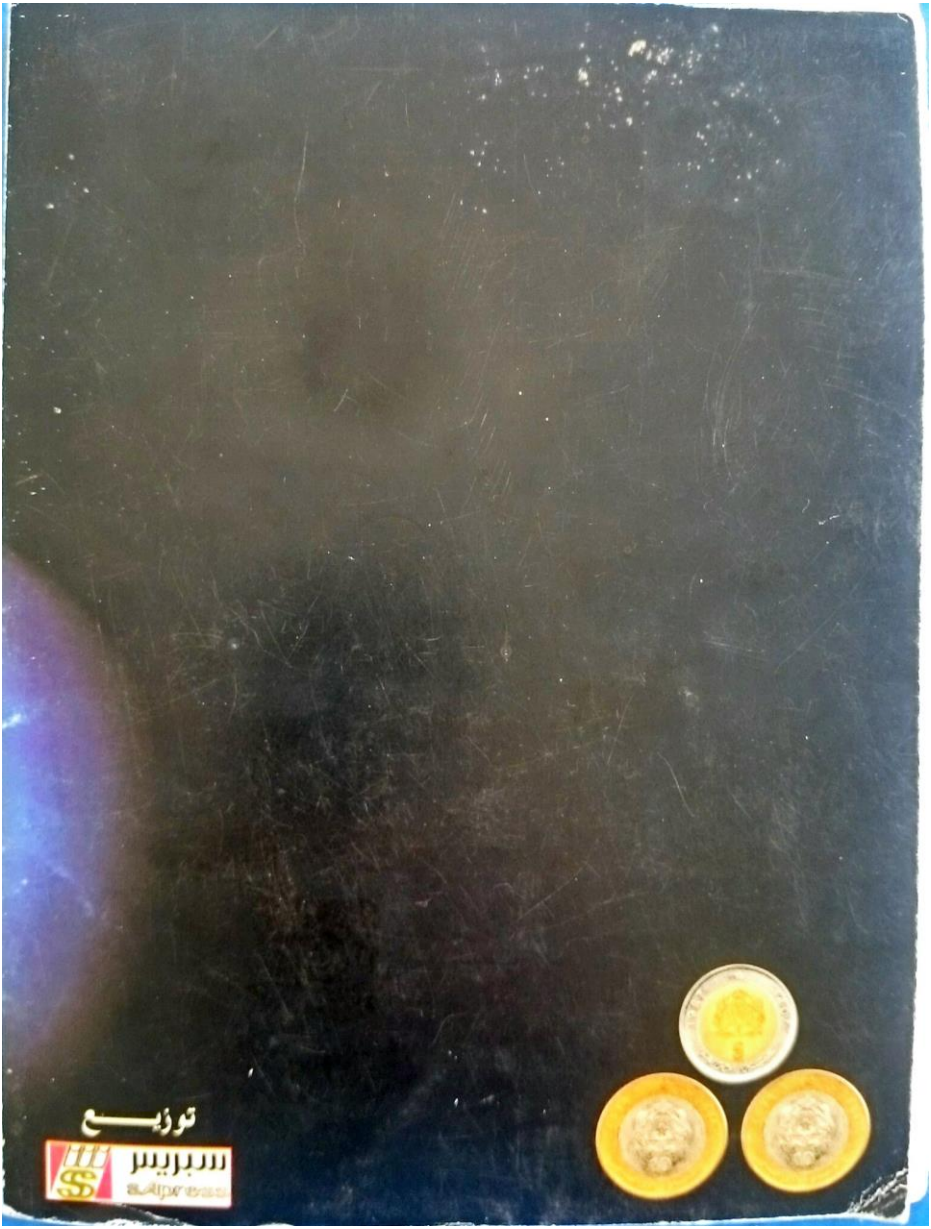
توزيع
سبريس